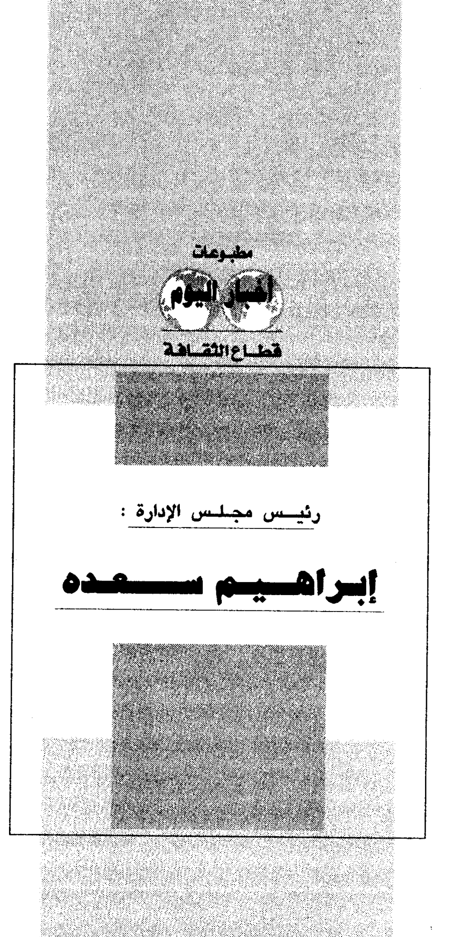
جرح الحب..

فى قلوبنا

جميعا

چيلان حمزة



رئيس مجلس الإدارة :

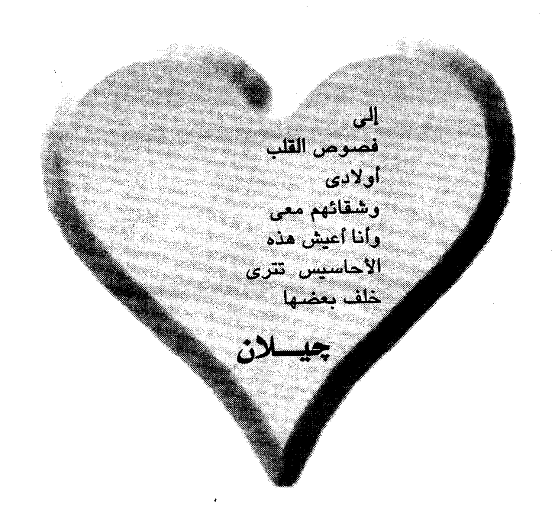
إبراهيم سعده

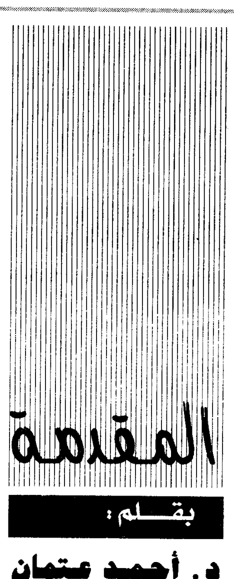


قطاع الثقافة

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠


إهـــداء
إلى وطنى وحب بلا حدود
إلى أهـــل وطـــنى
عشــــقى
چيـــلان


إلى
فصوص القلب
أولادى
وشقائهم معى
وأنا أعيش هذه
الأحاسيس تترى
خلف بعضها
چيـــلان



د . أحمد عتمان

رب قائل يقول : إن الساحة فى فن السرد الروائى والقصص مزدحمة، إذ يطالع المرء الروايات والقصص القصيرة فى كافة الجرائد اليوميةوالدوريات الأسبوعية والشهرية ويسمع من الإذاعة ويشاهد التليفزيون ألوانا شتى من هذا الفن.

لكن المتلقى المدقق يستطيع أن يميز بين الغث والثمين فى المطروح من هذا الفن الأدبى. فليس كل ما يروى يدخل فى الأدب وليس كل ما يذاع أو ينشر فنا.

أما هذه الرواية التى بين أيدينا فهى حلقة من سلسلة روايات نشرتها المؤلفة من قبل وحازت حسن الاستقبال من الجمهور والنقاد. وكان لى الشرف فى المشاركة بالرأى حين نشرت إحدى هذه الروايات وأعنى «الحبيبة». ونحن نرى أن رواية «جرح الحب» التى بين أيدينا هى استمرار لنفس المسيرة. فكل هذه الروايات تبدو وكأنها سيرة ذاتية للمؤلفة المبدعة. ولكنها سيرة ذاتية اتخذت قالبا فنيا ورؤية فكرية يخرجان بها من فن السيرة الذاتية ويدخلان بها إلى دائرة الرواية، على أن هناك قدرا من التقاطع والتداخل بين هاتين الدائرتين.

والمؤلفة شخصية إعلامية مرموقة ومعروفة للجماهير كما إنها هى نفسها هكذا تعيش مع هؤلاء الجماهير عبر الشاشة الفضية. ولكنها وكما يتضح من رواياتها ولا سيما «جرح الحب» تختزن لنفسها أمورا كثيرة تشكل ما يمكن أن نسميه عالمها الداخلى المغلق، فلما أرادت أن تفصح عن مكنونات نفسها لم تجد

مـــا هو أصلح من القـــالب الروائى لـذلك. فـراحت تـبث فى هذه الروايات كل مـــا اختــزنتــه. ولذلك فإن هذه الــروايات هى بمثـابة مساحة للبوح والمصارحة أو المكاشفة.

ومع ذلك كانت المـؤلفة تقع فريسة لـلتنازع بين قطبين داخل نفـسهـا هما : العـقل والمنطق والعلم مــن جهــة والعاطفــة والفن والشهرة من جــهة أخرى. تشدها أحلام المغامـرة وروح التجديد والمعـاصرة والمـغامرة إلى آفـاق التأمل الحــر والإبداع المنطلق. ومّا أن تنطلق فى هذا الاتــجاه حتى تعتــرضها عــقبات المــحافظة والتقليدية والقيود الاجتماعية والأعباء النفسية. البطلات فى جميع الروايات التى نشرتهـا چيلان حمزة تعــانى من هذا المأزق وتقع فى المأساة.

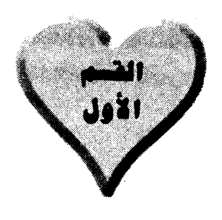
من الواضح إذن أن روايات چيلان حــمزة ليست مجــرد سيرة ذاتية. لأن البطلة فى معظم هذه الروايات تحمل عــلى كاهلها أعباء المجتمع كله، ففى «جــرح الحب» نجد البطلة تواجه مشكلات عدة منهــا الطائفيــة والتعــصب ومنهــا قضــايا الفن ومنها المــشكلات السيــاسية ومـــا إلى ذلك. وتطرح هذه القضــايا جميـعا من زاوية التجربة الشـخصية وينتـقل هذا الإحساس إلى المتلقى مما يورطه فى الأحداث ويشده لمــتابعتها وهذا هو عنصــر التشويق فى هذه الرواية.

يرى القارىء لهذه الــرواية نفسه محاطا بعــدة مرايا تعكس له الأحياء والأشياء من حولنا. فالأحداث والشخصيات والموضوعات كلهــا من وحى حيــاتنا اليــوميــة البـسيطة. ولكـنها تعــرض على القــارىء بغلالة شـفــافة من التــأمل الفلســفى.. ولذلك تكثــر فى الرواية أحلام النوم واليقظة، والتهيؤات والخيالات ولحظات كثيرة

من الاستغراق فى التفكيـر دون أن يصل الأمر إلى حد «الفنتازيا» فنحن أمام قصة واقعية وتجربة شخصية أو هكذا يبدو الأمر.

إنها رواية تشدنا وتلفت انتباهـنا ، لأنها تمس شغاف القلب لما فيـها من بسـاطة وتلقـائية. فـالمؤلفـة قد فتـحت قلبـها وعقلـها واغترفت منهما لتملأ صفحات هذه الرواية. الأسلوب كذلك بسيط لا تكلف فيه ولا تعقيد. أما التـجربة المطروحة فهى خاصة جدا.. إنها شـأن من شئـون المؤلفـة والقارىء مـعا.. فجـرح الحب فى قلوبنا جميعا.

أحمد عتمان



الفصل الأول

حجـرتها يموج من داخلها نوع مـن الصمت المألوف لها فـقد تعودته.. سكيـنة آخر الليل فى هزيعه الأخـير.. نائمـة ولا نائمة.. نبضـها محملٌ بوجد قديم أحست فيه بطعم الشجن.. ألوان وصور تبرق فى مخيلتها.. توشوش فى أذنيها.. فى عقلها ومضات تضاء وتنطفىء وأحيانا تنفجر فتصطخب مخيلتها بلون الغيرة الأصفر.. ومرة باللون الوردى الذى يختفى قبل أن تعيشـه ودوما يقتحمها اللون الدامى الذى يغرق مـخيلتهـا طويلا.. وبغتة حط نور الفـجر على جـفنيهـا المغـمضتـين فمـحا الصـور والألوان.. له ضىّ بلا حرارة ولكنهـا أحسته ولسـعة برد كالفرحـة شعرت بها فَـشدت قميصها تغطى ركبتيها وسـحبت وسادتها لصيقة بها. إنها تحمل عنها ثقل ذراعها وتمددت بانتظام. كانت تحمل داخل أعماقها تأهبا ملحاً تنتظـر به الفجر.. يقظة لأضـعف حركة! غـصن مال يطاول آخر.. رفرفة طائر تاه عن فرعه.. ودق صوت المنبه يجرح سكون اللحظة.. فاستدارت لتسكته فاليوم هو إجازتها الأسبوعية.. ومدت ذراعها لتطوله.. إنها تعشق الفجر تحب غبش ضوئه.. ضوء ترتاح فيه الدنيـا بلا وهج.. وقت لم يمس الدنيا فيها بشـر بعد وله عبق تعشـقه.. تشم فيـه رائحة رضيع لم يكمل يومـه السابع معـجون برائحة خـبز دافىء.. ففى الفـجر طعم الأبدية.. وفقط عند الفـجر تتخلص من كل الانـفجارات والألوان من هذا العـراك والصور فى مخـيلتها والذى تسـتشعـره فى أول الليل ودوما تتـرك جزءا من شرفتها مفتـوحـا فى الشـتاء حـتى تستجلب مـذاق الفجـر وهى

لا تذكر أنهـا تفادت ضوء الفجـر إلا يوم أن مات زوجها.. وقـتها كانت تدفـن رأسها عند الفـجر.. وكـانت توصد النوافـذ ثم عادت لعشقـها.. فكل شيء يعود مع الأيام خـاصة لو كان ماضـيا دوما يعود.. يلح يفرض نفـسه ولا نتخلص منه مطلقا.. شـدت جسدها قاعـدة تتحـسس ما تضع فـيه قـدميـها وأول مـا لمحـته رءوس الشجـر.. كل ورقة تلتـف على بعضهـا وتكون نصلا فـى أعلاها كأنها تدفىء نفسها من برد الفجر وتلتـصق منتصبة بقرب فرعها الأصلى تحتمى به.. وهى مازالت تـنظر إلى الشجيرات، هبت ريح قليلة داعبت رءوس الشـجر، فمال قـريبا من زجاج الشرفـة كأنه يوقظها ينادى عليها بطريقته يلثم نافذتها ليدعوها معه ، تأكدت أن الأشجار تعرف كيف تفرح.

وفى لمحة أخرى تفتحت رءوس الـشجر لتصنع ورودا بيضاء فهل الفرح يصنع الجمال؟ وتذكـرت اليمامة وبخطوة واحدة دلفت إلى الشرفة ونظرت إلى ماسورتين فى سقـفها.. اليمامةحاولت أن تصنع بينهما عشا وقد نجـحت رغم وجود فراغ بينهما ولكن كلما وضعت بيضة فوق العش «المتلصم» فى أول كل شهر تسقط بين الماسورتين.. لا يحملها العش فى كل مـرة تنكسر البيضة ولكنها قادرة على تكرار المحاولة!

هل اليمـام لا يشيخ..لا يعرف النضـوب.. ربما لقصر عـمره.. أعادت نظرتها إلى اليـمامة فى السقف.. داكنة مثل الليل المـسافر عنها لتوه.. تكر.. تكر فقد انشقت البـيضة ملقاة على بلاط الشرفة ولن يمكن لها أن تـعى هذ الحقيـقة مع مقـدم الشهر القـادم.. فلا ذاكرة لهـا سيتكرر الحـدث مع أول كل شهر.. واسـتراحت لفكره أنهـا لم تخلق يمـامـة.. سـحبت عـينيـها بأسـى من على العش

واستدارت خطوة واحدة وكانت أمام مرآتها فى حجرتها.. فى كل صباح لا تكون راضية عن ملامحها فاقتربت منها أكثر وتحسست ذلك الانتفاخ الموجود تحت عينيها.. آثار من رقادها مطبوعة على خدها بسبب طول شعرها.. ولكن لماذا تبدو فى الصباح أكثر وزنا؟ صارت تقترب فى ملامحها من والدها! ورثت عنه الشفاه غير المحددة! لا شىء يفنى فى حياتنا المعاشة هناك دائما الاستمرار للماضى! شكل والدها يعود مطبوعا عليها كل صباح!

فى المطبخ كانت تعد فنجان قهوة بدون سكر أيقظها فعلا.. حاولت أن تقوم ببعض التمارين البسيطة فلم يطاوعها جسدها.. لقد نسيت أن تبتلع حبة «الإسبرين» التى تتناولها كل ليلة ، بها لا تشعر بأى نوع من التيبس عندما تستيقظ.. وعادت تقترب من المرآة.. نسيت أن تتخلص من مشد صدرها منذ الليلة السابقة.. أرهقت من كثرة العمل ونسيت.. تعرف أنه يمكنها أن تستغنى عنه ولكنها تخشى أن يبدو جسدها رجراجا أمام الآخرين. كان لابد أن تنتهى من كتابة الموضوع لتدفع به إلى المطبعة ومن قبل ذلك كان عليها أن تكمل قراءة الكتاب نفسه الذى ستعرضه عن فن «النحت» أرهقتها المصطلحات الكثيرة واستعانت بالقاموس أكثر من مرة.

الإحساس حيّ وجارف داخلها يحتويها بكلياتها يختزل كيانها فى عبارة واحدة تهمس بها عن رضا « الحمد لله لقد أعطانى الكثير إنه الرحيم». بينها وبين الله صلة ما لا يمكن أن تبدأ يومها إلا إذا شعرت بأنه معها وأنها قريبة منه بل فى أحيان كثيرة مفضلة لديه!!

رغم كل الأقوال التى تؤكد أننا سواسية! تحس بهذا كل فجر.

مدت أصـابعها وتخـلصت مما يضـغط عليها. قـبل أن تخطو إلى الباب لتسـحب الجريدة، لمحت المرآة مرة أخرى وبتنهـيدة كانت تفكر «مـا هذا الشحـوب الذى يركن على وجـهى رغم أننى أترك الشـرفة مـفـتـوحة لأسـتنشق أنقى هواء، ولـكن هل يكف الناس والأشجار عن استهلاك الهواء والتنفس وهم نيام»؟ وقبل أن تصل إلى البـاب كـانت تدلف تحت المـاء الدافىء ولديهـا النهـار بطوله ليجف شـعرها، لا تحب أن تجففـه صناعيا رغم أنها تتلذذ أحـيانا بهوائه الساخن يمس رقبتها وداير وجهها..

وخرجت من تحـت الماء وتمسكت أن تشـرب آخر جـرعة من قهوتها لها مـذاق لذيذ، ويقولون إن من يحرص على «آخر قطرة» من طبـيعتـه الوفاء أم أنه قـرب النهاية فـقط يعرف الإنـسان لذة مـا كان لـديه؟ بلا سكر تشـرب القهـوة. يقـال إن السكر ضـار! فتساءلت: هل سيأتى الزمن الذى يقال فيه: إن الأكسوجين ضار!! على العـموم هى لا تريد زيادة فى وزنهـا، تحتـفظ بين ملابسـها بثوب قديم من أيام جـهازها تعيد ارتداءه كل «عدة شـهور» حتى تتشبث بـوزنها.. أذناها مع الباب وعيناها على المنبـه وعرفت أنه لا يمكن أن يأتى الأسطى «زينهم» الآن ليـعيد إليـها عربتـها التى يقـوم بإصلاحـها فـاستـدارت وهى تسحب المنشـفة من حـول جسدهـا.. حدقت فى نهديها.. شـدتهما بطرف أصابعـها إلى أعلى قليلا.. تعـرف أنهمـا ناضران.. مست الحلمـتين فنفـرتا.. مثل كل النساء تطيل التحـديق فى جسدها تتفحصه فـى خلوتها.. شعرت ببرودة الحجرة رغم أنها «قبلية» ولكن مناخ هذه الأيام إما صقيعا أو صيفا طويلا حـارقا. ولاحظت هزة ستائر الشرفـة فشدتها من فورها.. تناولت ثوبا يوميـا وقعدت أمام المرآة فتحت فـمها لترى

أسنانها واقتربت بوجهها لترى بياض عينيها.. تشوبهما حمرة كأنها تعانى حتى وهى نائمة؟!! ثمتهما قطرات. .تنوى أن تصلى.. ومدت يدها إلى زجاجة صغيرة تأخذ منها. رائحة الفل فاحت فشعرت بنوع من الراحة تحب قبل أن تصلى أن تتعطر! ولا تعرف متى صارت تحرص على مواقيتها بقى دقائق لحضور الأسطى «زينهم» فالعربة هامة جدا اليوم.

سحبت ظرفا من على المائدة الصغيرة الموجودة عن يمين فراشها وقرأت اسمها مكتوباً كأنه يؤكد اسمها بحروف النسخ المشعة «تمام الثامنة و.. وفى حالة التأخير نرجو الاعتذار فى الرقم الفلانى» الحروف مذهبة وبريدها اليومىّ لا يخلو من أكثر من دعوة.. والمناسبات الفنية «بالكوم» وقررت أن تتصل بمكتبها تنبه على طلب مصور يلتقط اللحظات التذكارية والشخصيات العامة التى ستحضر.. وفوق هذا فهى تعرف صاحب المعرض.. لها أكثر من مساعد لا يتركون الصغيرة قبل الكبيرة إلا ويسجلونها بعد ذلك تختار هى ما ينشر، وحين عبر بخاطرها فكرة قدرتها على الاختيار النهائى شعرت بفرحة اختلج لها قلبها.. إنها ناجحة بكل المقاييس فى عملها.. عوضها الله بالكثير بعد أن فقدت زوجها منذ أكثر من عشر سنوات كانت أيامها فى الثلاثينات من عمرها.. فغاصت فى العمل.. أعطته أنضر أيامها.. كانت تستعجل طلوع الشمس لتذهب إلى الجريدة وتقضى بقية النهار تكتب وتختار آخر واحدة تغادر المكتب وفى اليوم التالى تبكر أكثر فى الذهاب تنتظر إلى أن يرتب الساعى وينظف كل شىء.. أكثر من عشر سنوات تعمل بدأب لا يفتر.. وعادت تمشى بعينيها على الدعوة ذهابا وجيئة فلا يمكن أن يخلو محفل منها

سواء فى المسرح أو السينما أو المعارض رغم أنها شخصيا لا تشتغل بأى من هذه الفنون ولكنها صحفية فقط والآن يطلقون عليها اسم الناقدة الفنية «مها موسى» تعرف أنها شديدة التذوق وأن كلماتها دوما فى الصميم.. يعملون لها ألف حساب فإذا ظهرت فى العرض الأول لأى مسرحية فإن المؤلف والمخرج يسارعان للاحتفاء بها ويحاولان شرح ما قد يغمض من العمل المقدم.. ويأتى الممثلون والراقصون يرحبون بها ويسألونها الرأى ورغم أنها تُظهر امتنانها وأحيانا انبهارها إلا أنها حين تمسك القلم تنسى كل ما كان وتخرج كلماتها فى صلب الموضوع تنتقد عن قناعة توجه أو تحذر فاكتسبت نوعا من التقدير لدى الجميع.. وهى تعرف هذا فلم تستطع أن تكبح قشعريرة النشوة التى تلازمها منذ أن طلع الفجر.. انفلتت ضحكتها وخاطرها يعبر فيه سرب العربات التى تتعقبها وهى تلبى أى دعوة لأنهم يعرفون الطريق بالسير وراءها.. والمثقفون يتفننون فى تقديم ما عندهم فى أماكن مدهشة وربما نائية.. بعد الهرم.. بجوار ترعة كانت أيام المماليك وكأنهم يقولون إن الفنان لا يكتشف اللحظة فقط ولكنه يكتشف الأرض أيضا.. تركت الدعوة بنوع من الحرص على طرف سريرها فقد دق الباب دقا موصولا.. فى عقلها إنه ولابد الأسطى «زينهم» وفى عبورها إلى الباب حاولت أن تلمح عناوين الجريدة. أمام الباب وجدته فاتحا ذراعيه يستند بهما على حلق الباب.. حينئذ هبه عرق لفحت أنفها فتراجعت خطوة إلى الوراء ولمحت ساعدها الساعة لم تكن فيه فبادرته بالسؤال عن الوقت.. فلوى رقبته بنوع من الكبر ونظر إلى معصمه، ساعته من المعدن الفضى وعرفت أنها غالية الثمن

لأنها من إحدى الماركات الشهيرة، والتى تأخذ صورها أحيانا مساحة المكان الذى تكتب فيه.. بعد أن جاوبها بثقة فيها طعم التباهى أفسحت له الطريق فدخل بشىء من الاندفاع.. صاحب الورشة التى تتعامل معها ملامحه مصرية صميمة ونظرته يقظة يستهويهما كل شىء إلا أنه يستورد شكلا عربيا فيترك لحيته لتتلاقى مع شاربه فى دائرة هلالية فى دخلته اندفاع من يعرف البيت ويعرف المقعد الذى يجلس عليه فى بداية الممر الطويل الذى يفصل بين حجرتها ومكان الاستقبال جلس على كرسيه المحفوظ بجوار مائدة صغيرة عليها «التليفون» ومد يده بسرعة يدير القرص فاصطدمت الخواتم الفضية التى بين أصابعه ببعضها.. من حديثه فهمت أنه يعتذر للواء فى الجيش على أن يأخذ عربته الآن وتعمد أن يذكر له إنه موجود عند سيدة عزيزة جدا لديه «ومشهورة ياباشا.. فنانة من اللى بتظهر تصاويرها فى «الجرانين» وإنه سيأتى له فى العصر ليشرب معه الشاى ويأخذ العربة «ونشوف موضوع إبراهيم.. الحكاية إنه كان خالى شغل.. وكبر عليه ييجى الورشة يطلب شغل.. هيصرف إزاى.. والدنيا مولعة.. لا إرهابى ولا حاجة.. ده جعان يا باشا».

ما إن وضع السماعة حتى توقفت أمامه «تصاوير إيه اللى بتظهر لى فى الجرايد» أخفى رأسه وهو يدارى ابتسامته ويبحث عن مكان يطفىء فيه سيجارته «أصل أنا بافتخر بك يا ست هانم وأصل معرفة السلطة حلوة بتنفع». اقتلعت ابتسامة وهى تقول له: «أنا باشرح الفن يا أسطى زينهم علشان القارىء يفهمه مالها السلطة» ابتسامته واسعة انفسح عنها شدقاه فبانت أسنانه تحمل جميع الألوان وتنطق بالإفراط فى تذوق كل شىء و.. و.. ولكنها

رفعت عـينيها من على أسنانه وهو يقـول «متدقيش ياست «مـها» بتشـتغلى بـالفن يعنى فنانه ها.. ها.. ها وأصل البـاشا بيـشوف حكاية إبراهيم ده لا إرهابى ولا غيره ها.. ها.. ها» لثـانية اختلطت عليها الأمـور ولم تستطع أن تحدد ما إذا كـانت أوصلت له وجهة نظرها عن حقيـقة عملها!! وتذكرت فى الوقت نفـسه أنها يجب أن تدفع له حسـاب إصلاح العربة فاسـتدارت داخلة حجرتهـا تبحث عن نقودها فى حقـيبتها ثم بين أوراقهـا أو فى الكتاب الذى كانت تتصفحه بالأمس إلا أن البحث كان دون جدوى والأسطى «زينهم» ينتظر ، فـاندفعت خـارجة من حجـرتها والكلمـات على شفـتيـها تدارى بها حرجها ولتأخذ مساحة من الوقت لتعاود البحث «شاى ولا قهوة يا أسطى زيـ..» ولكنها لـم تجده مكانه فمشت خطوات فى الممشى إلى حجـرة الاستقبال ووجدته هناك فـأعادت سؤالها «شـاى ولا قهـوة» إلا أنه لم يرد عليـهـا إنما اسـتدار فجـأة فى مواجهتها بشىء من الحدة وهو يقول:

– عندى سؤال متردد أن أقوله يا مدام .

بتلقائية كانت ترد عليه:

– إسأل يا أسطى زينهم فيه حاجة؟

أشار لهـا بيده إلى تمثـال بالحجم الطبيـعى لفتاة من العـصر الرومانى موضـوع فى ركن بعيد من حجـرة الاستقبـال الواسعة وقال عبارته كأنه يريد أن يتخلص مما يثقل على صدره:

– التمـثال ده حرام.. التمـاثيل تطرد الملائكة من البيت.. كـما أنها شرك.. كُفر!؟

وكمن انتبه إلى حدة ملاحظته وصوته فقال لها مؤكدا ومحذرا بأصبعه:

ـ إنت قلت إسأل يا زينهم.. وأنا سألت.

أشارت له بـالجلوس أقرب مـا يكون لتمـثال الفتـاة الأبيض.. وقبل أن تأخـذ مكانها هى الأخـرى كان شىء ما فى أعـماقهـا قد اهتز.. صدرها يأكلها.. تشعر بوطأة مـما قاله حتى البلل فتناولت ورقة تجفف جبهتها وبرق فى ذهنها السؤال لأقل من الثانية «هل أنجح فى أن أغير فكرته» وما إن استقرت فى مقعدها إلا وسألته:

– حرام لـيه.. وإزاى تمـثال من حـجر يطرد مـلائكة من خلق الله!؟ عقلها فى كـامل يقظته لا تريد أن تخدش معـتقداته أو تنزلق إلى كلام يعتبـره كُفرا كما يقول فلم تنتظر جـوابه واندفعت تقول مرة أخرى:

– هل تتوقع منى مـثلا أن أركع على ركبـتى أمام هذا التمـثال وأطلب منه شيئا لنفسى أو ...

لم تكمل كلامهـا إذ وجدته يضحك ببساطـة.. يضحك من قلبه حتى عـاد برأسه ولامس ظهر الـمقعـد.. فبدا أمـامها عـفويا.. هل اقتنع بكلامـها؟ وبهذه السـرعة.. ثم سكت فجـأة كأنه يفكر فيـما قالته وبدت ملامحه شديدة البـراءة فنظرت إليه تستحثه أن يتكلم إلا أنه أشار بيديه ألا كـلام لديه.. ثانية صمت وعادت تتـذكر أنها لم تعثر على حافظة نقودها فـأعادت السؤال «شاى ولا قهوة إلى أن أجد محفظتى يا أسطى زينهم» فأشـار لها بإصبعه وهو يغالب ضـحكاته فنظرت إلى مـا يشـير وعـرفت أن الحـافظة فى جـيب ثوبها.. مـدت يدها وأخرجتـها بلهـفة وقد غـرقت هى الأخرى فى موجـة من الضحك «كان يمكن أن أقـضى بقية النهـار أبحث عنها يا أسطى زينهم» أشار إلى رأسه بما مـعناه أنها شديدة الانشغال واستدار فى خطوات ثابتة إلى الباب.. وهى تغلق خلفه الباب كانت

تقرر لنفسها بأن التعامل مع هذا الرجل فى أحيان كثيرة يجعلها تضحك وهمست «هَمْ يضحك وَهَمْ يبكى» وعضت على شفتيها وهى تهمس «ليتنى أتوقف على أن أناديه بكلمة أسطى لأنه يفضل عنها لقب الباشمهندس ولكن لا فائدة لقد حاولت وفشلت».

نظرت إلى ما تبقى معها بعد حساب العربة.. ليس أكثر من خمسين جنيها ، وباق على انتهاء الشهر أسبوع كامل!!

التقطت ساعتها وَعلقتها حول معصمها... دقائق وتأتى «أم صباح» تأتيها حتى يوم الجمعة والواقع أنها أصبحت مريضة بالاعتماد عليها لا تقوى حتى على ترتيب حجرتها بنفسها فما بالها بباقى شئون البيت، ومازالت تنتظر «أم صباح» بحواسها فدوما تسمعها أحلى الكلمات وتناوشها «والله اللى يشوفك يقول بنت بنوت» . هل تطرد شعورا ضاغطا كثيرا ما تجد نفسها فى أتونه لأنها تفتقد المشاركة رحل عنها رجلها، وهى تفتقده ليس كزوج.. رجل.. لا فقد بهتت حواسها واستراحت إلى ذلك فلا يمكن العيش مع الفقد.. من الصرخة الأولى يضيع التواصل.. ينقلب إلى ذكرى عزيزة فقط ولكن بلا رغبات.. وهى اعتادت هذا الإحساس أكثر من عشر سنوات إلا أنها تفتقد مشاركة إنسان بعد يوم طويل لو فى الأمور الصغيرة العادية والتى لا تنتهى.. اللَّبان.. الجرائد.. جامع القمامة.. البوستة.. بائعو الموسوعات.. عارضو المياه الغازية الملونة والشفافة.. أبناء جيرانها وحتى الكبار منهم ما إن يروها إلا وتنفتح شهية كل منهم ليواجهها برأيه فى الجريدة وما ينقصها من موضوعات وتحقيقات كأنها مسئولة عن أى تقصير أو زيادة فيما يكتب.. وبعضهم يعتب عليها حين يكتشف أن الخبر المعين من وجهة نظره ناقص ! ثم يستنتج أنها ولابد الرقابة وأنه

الاتجاه إلى إخفاء الحقائق وعلاوة على أن هذا بعيد عن الأمانة و.. و.. و.. يتصورون أنها عليمة بكل الأمور وكأنهم لا يدركون فكرة التخصص أو يتناسونها ! وإنها ما هى إلا جزء من صفحة يشارك فيها عشرات المحررين فينهالون عليها بالمساءلة ولا ينتظرون حتى جوابها ولكن يسألون ويجيبون بأنفسهم فى وقت واحد.. !

كل يوم تعود إلى بيتها مرهقة تتمنى ألا يراها أحد حتى تنفلت إلى شقتها لتستريح.. لو أن لها رجلا لتحرج كل واحد من جيرانها فى أن ينفرد بها على باب المدخل أو عند المصعد ليسألها ولكنهم يعتبرونها «فاضية» لا زوج ولا أولاد.. وقبع داخلها الإحساس بأن المرأة بجوار زوجها تبدو أكثر قوة وكأن من حولها سياجا يحميها ولا يستطيع أحد اختراقه بكل هذه البساطة وفى أى ساعة يرونها. . تناولت الجريدة تتصفحها وتأكدت من وجود العامود الذى كتبته عن النحت.. لمحت بطاقة الدعوة وتأكدت من الثامنة تماما ودق جرس الباب وفى الوقت نفسه كان القادم يدق بكفه على خشب الباب.. لحظة ارتباك وتردد انتفضت بعدها وهى تسأل مَنْ؟ مَنْ؟ وعرفته من صوته المهندس «ماجد» الذى يسكن فوقها كان يحاول الكلام والإشارة بيديه فأفسحت له الطريق إلى التليفون كما فهمت لأنه يعتقد بأن الحرارة مسحوبة من عنده.. لمحت تاريخ اليوم فى الجريدة التى مازالت ممسكة بها لا إراديا وعرفت أن الشهر لا مطالبة فيه باشتراكات فلا نحن فى أول العام ولا فى منتصفه ولكنها آثرت ألا تناقشه.. من حديثه عرفت أنه يبلغ والدة زوجته بأن ابنتها على وشك الوضع.. تمتزج فى ملامحه معانى الفرح والقلق المشوب بالتوقع فرأت أن تهدىء من نفسه «بسيطة بسيطة الولادة شىء طبيعى.. إنت عايز ولد ولا

بنت» وبرق فى ذهنها للحظة اليمامة التى تقطن مـاسورة شرفتها وينكسر وليدها.. ورد عليها المهندس «ماجـد» باهتمام كبير حتى أنه أعطاها الإحساس بأنه كبر عشر سنوات وأن مسألة أن يصبح أبا قد استعـد لها بالإيمان الكبير «والله اللى يجيـبه ربنا.. الأطفال مـسئـوليـة.. ولكنهم أحـبـاب الله.. بيت بدون أطفـال يعنى بدون ملائكة» فضحكت بعـصبية وصوت مسمـوع إلا أنها تذكرت جده الموقف فلم تستـرسل إنما قطبت من جبينها وهزت رأسـها كأنها توافقه الرأى ثم أدار لها ظهره خارجـا فى سرعة.. بينما لم تتمهل فى سؤال نفـسها «هل لأنه ليس لـى أولاد فبيـتى بلا ملائكة؟ بل الأدهى من هذا أن الأسطى زينهم هو الآخـر يرميها بعـبارته بأن التماثيل تطرد الملائكة من البـيت» بمرارة ابتلعت الجملتين وإن لم تستـوعبهمـا كأنها تتـساءل لماذا يبحـث الناس عن أشياء خفـية ومبـهمة ليـفسروا بهـا واقعا مـا؟ لماذا هذا الانجـذاب إلى إيجاد قوانين خفيـة لكل شىء إن كان مفرحا أو محـزنا. مدَّعين أنها من عند الله! وتجسدت أمامها هيئة زوجها «لو كان لى منه طفل.. ترى مـاذا كـانت سـتكون مـلامحـه» فى نفس الـلحظة لم تسـتطع أن تستعيد تفـاصيل وجهه بوضوح إنما فقط هيئـته العامة وبخطوة واحـدة جرت إلى دولابهـا وأخـرجت كومـة من الصـور له الذى لاشك فيه أنه كـان وسيما.. مات شهيـدا فى حرب ٦٧ وكان على استـعداد أن يستشـهد فى اليوم مـائة مرة من أجل حبه «لجـمال عبدالناصـر» كان يروى لها عنه حكايات.. قال لها مـرة بأن عينيه لا يستطيع أى إنسـان أن يركز نظرته فـيهمـا لأن عينيه قـويتان كعينى الصقـر ولهما نفس صفرة لونها. وكان عـملاقا.. كان هرم زمانه وحين كان معه فى سوريا زمن الوحدة ومعه زملاء آخرون

مَرَّ مـن أمامـهم المخـتص بملابسـه وكان يحـمل فى يده بدلة له معلقـة فما كان من الحـاضرين وهو معـهم.إلا أن قاموا احتـراما لمرور البدلة فى يد من يحملها.. وابتسمت بينها وبين نفسها.. فى هذه الأيام كـانت تلح على زوجـهـا فى أن ترى الرئيس «جـمـال عبدالناصر» ولو مرة واحدة.. ولو خلسة.. فكان يعدها بانتهاز أية فرصة ليحقق لها أمنيتها.

وتبعد «مها» مع ذكرياتها تعيـشها مرة أخرى حية وتتذكر تلك الليلة التى ظلاً يتـبادلان فـيهـا الود المتـقطع حينا كـعصـفورين وحيدين فى فضاء بعيد وحين حظًا يشربان لم يرتويا لأنه أزاحها فجأة وهو يلتـقط سماعة الهاتف وسـمعته «ليس أكثـر من ساعة واحدة وأكـون عندكم ياأفندم» والتفـت إليها وهو يؤكـد «الرئيس سـيسـافر الليلة ولابد أن أكـون فى المطار حـالا.. وهذه فرصـة سأتركك فى العربة ربمـا استطعت أن تلمحيه عن قـرب» التصقت به أكثـر وهى تقول : «سمـاح حتى أرى الرئيس» وبسرعـة كانت تتناول حقيبـتها وتسوى من خصلاتها السـوداء.. حزمت شعرها بقطعـة قـماش حـمـراء واندفعت خـلف زوجهـا تسـابق خطواته الواسعة.

العربة فى أقصى سرعتـها على طريق المطار.. كانت مزغردة أعماقهـا تمتلىء بطاقة مبهمة كـأنها على وشك أن تأتى بعمل هام أو أن تصـعـد إلى مكان مـرتفع.. فـى داخلهـا ترقب ودرجـة من التوتر جعلت يقظتها عالـية «أكيد سأرى الرئيس عن قرب.. الوقت متأخر لا يسمح بوجود أعداد لوداعه وسأتمكن من رؤيته».

ليل القـاهرة لا نعيـشه فـقط إنمـا يتخللنا ونصـير جـزءا من نسيـجه.. ليل القاهرة ـ واعـدا ـ ملأ روحهـا فانعش نفسـها ترى

النجـوم العالية وكـأنها مـرشوقـة فى زجاج العـربة من أمامـها. إحسـاسها بأنهـا ذاهبة إلى مغـامرة فوسدت رأسـها إلى المقـعد ومدت يدها أكثر من مرة تداعبه لتتشابك أصابعهما كأنهما يقدمان على مغـامرة سويا ، يـشد كل منهمـا عضد الآخـر إلا أن أمارات الجدة تسيدت على وجهه فخـرجت منها عبارتها همسا «الله.. الليل جـمـيل زى الأحـلام» فلم يرد عـليـهـا.. حـتى لم يحـرك رأسـه الشاخصـة إلى الطريق فالتقطت أصـابع كفه وعضت سبـابته فى محـاولة أن تستـحوذ على انتـباهه فشـد إصبعـه دون أن ينطق.. لملمت من نفسها وسحبت ثوبها لتغطى ركـبتيها وجلست معتدلة مكانها.. بعدت النجوم مـن أمام عينيها مهمـا حاولت فلن تمسكها الآن.. كـانت قد عـرفت السكوت.. وفجـأة وصلا المطار.. انتـزع مفتاح العربة دون كـلام وسار فى طريق يعرفه إلى أن توارى عن عيـنيهـا.. نظرت فى ساعـة يدها وتبينت أنهـا قفـزت إلى الثالـثة صباحا وطرأت لها فـكرة لماذا لا تنزل لتتمكن من رؤية الرئيس؟ وربما سلـمت عليه.. وربمـا كلمته. لم تـتردد إنما نزلت لـم تهتم حتى أن تغلق النـوافذ فالحراسـة تلمسـها مكثفـة ولكنها مع ذلك هادئة.. عـساكـر وضبـاط تروح وتجيء فقط هنا وهناك.. أخـذت شهيقا وشدت حقيبـتها تحت إبطها.. اطمأنت على شعرها ومشت فى خطوات واثقـة.. دخلت صـالة المطار وفـوجـئت بحـشـد من الرجال عرفت أغـلبهم من صورهم فى الجرائد والمـجلات.. كادت تهتف حين رأت بينهم «عبدالحليـم حافظ» مطربها المفضل.. قليل التكوين ولكنه بارز بين كل هؤلاء المسئولين.. الممشى كله مغطى ببساط أحمـر.. وجدت نفسها لا إراديا تمشى عليـه.. تطلعت إليها الأنظار لبـرهة ثم انخـرط كل واحد فـيـما كـان مـشغـولا به من

حديث.. رغم الحشد معقول الحجم إلا أن الأصوات كانت هامسة ومازالت تسير على البساط لمحت طرف ثوبها الأبيض يروح ويجيء موقعا مع مشيتها، لم تكن تعرف أنها بهذا الثبات.. ثم لحظة خوف داهمتها.. دق قلبها وتساءلت «أين أنت يا أحمد الآن» تتمنى أن تجد زوجها أو تلمحه فى مكان ما لينقذها من هذا الموقف الذى وضعت نفسها فيه. ولكن لم تجد له أثرا فاضطرت أن تكمل سيرها على البساط... أعداد الرجال المنتظرين تتناقص عن يمينها وعن يسارها إلى أن شعرت بأنها وحدها والبساط لم ينته بعد.. تلفتت خلسة وكادت أن تصرخ « ياعالم ما الذى جاء بى إلي هنا. أريد أن أرجع» ولكن البساط كان ممدودا أمامها فأكملت سيرها. إحساسها بأن هناك من يدفعها من ظهرها لتتقدم أكثر فمشت.. ومشت.. ومشت إلى أن خرجت فى العراء لتجد أمامها طائرة واستنتجت على الفور بأنها الطائرة التى سيركبها الرئيس فى سفره إلى أمريكا..

تسمرت مكانها تتأمل الطائرة من كل هذا القرب ثم استدارت دورة كاملة فلمحت الرجال هناك فى عمق الممشى الذى قطعته هوى قلبها لثانية حين تصورت احتمال أن يسألها أحدهم مَنْ تكون؟

«يا ربى ماذا سأقول لهم حرم المقدم أحمد البيومى» وعصفت الظنون برأسها وهى تفكر «وآه لو أنهم تشككوا فىّ من أساسه ويقولون عميلة أو مأجورة.. أعوذ بالله لا يمكن أن تصل المسألة إلى هذا» تسترجع كلمات زوجها تمشيط المكان قبل أن يطأه الرئيس.. ولكن مَنْ هم الذين يريدون اغتيال الرئيس؟ إنه مثال للوطنية.. ومحبوب إلى حد الهوس كما أنه شجاع! وهل يوجد من

ينسى حادثة المنشية وسمعت صوته ساطعا فى عقلها «أيها الإخوة إن مات جمال أو قتل جمال فكلكم جمال عبدالناصر.. كلكم جمال عبدالناصر» يومها كانت طفلة إلا أن هذه العبارة مازالت عالقة فى ذهنها وكثيرا ما تجد نفسها بلا إرادة ترددها بينها وبين نفسها حتى بعد أن تزوجت.. إذن لماذا يخاف؟ وحتي بعد هذه الحادثة فهو على يقين من أن أمام كل واحد يكرهه مليون واحد يحبه: «دى تبقى مصيبة لو أن أحدهم قبض عليّ الآن» وفجأة تكتل الرجال فى البعد ومع ذلك استطاعت أن تتبين الرئيس.. عرفته من قامته بينهم.. أعلاهم طولا.. إنهم يقتربون ولا يبدو أن أحدا لمحها.. إنهم يقتربون فبدأت تتراجع بظهرها وإن ظلت شاخصة إلى الجمع إلى أن اصطدمت بأول سلم الطائرة فأمسكت بداير أول سلم الصعود.. أنوار تحترق تحدث فرقعات كانت تجفل لها.. إنهم بعض الصحفيين.. لحظتها تمنت لو تكون صحفية.. ولم تعرف أن هذا سيكون مستقبلها فعلا. ففى لحظات بعينها يمكن للمرء وهو يجتازها أن يستشرف الغيب الذى غالبا ما يصدق.. يقتربون إلى أن تبينت الرئيس بوضوح بينها وبينه خطوات معدودة.. كان العناق قد توقف ولابد أن يسير الخطوات الباقية منفردا.. رآها. صوب عينيه عليها فابتسمت بتردد ولكن ابتسامته الواسعة شجعتها فاقتربت ناحيته خطوتين ومدت يدها فمد يده فأطبقت عليها بيديها الاثنتين وأصرت أن تظل ممسكة بيده عن قصد وإن بدت أنها حركة عفوية.. كانت تريد أن تتعرفه من يده فكثيرا ما قرأت أن تكوين اليد يشير إلى صاحبها ويوضحه.. إحساسها بأنها تلمس قمة جبل.. وحدقت فى عينيه واستيقنت أن لون حدقتيه أصفر.. فبدت مقرورة رغم مهابة

الموقف.. انتبهت عن يمينه وقرب سلم الطائرة من طرفه الآخر كان يقف المطرب «عبد الحليم حافظ» ولا إراديا همست «تروح وترجع بالسلامة باريس» أومأ لها مبتسما وبدأ يصعد السلم.. تروح وتيجى بالسلامة صارت أغنية بعد ذلك «آه لو يعرفون أن مطلعها أنا أول من نطقت به» وصعد السلم فبدا فى نهايته عاليا شديد الضخامة وحين أغلق عليه الباب لم تصدق كيف تحوى الطائرة هرما.. وعادت البساط كله جريا.. كانت تنفذ بين الواقفين بشىء من الاندفاع.. تسرع.. تسرع لتصل العربة قبل زوجها.

فى طريق عودتهما كان أحمد بادى الارتياح.. عادت تقاسيم وجهه تأخذ شكلها الأليف لديها وعادت يده إلى مكانها الطبيعى فى حضن قلبها.. كان لطيفا ودودا.. بدا رجلا.. رفع حاجبيه وهى تحكى له بأنها سلمت على الرئيس. اندهش منها وهى تقول له: «إن ملمس يده طرى .. كفه هشة كأنها بلا عظام وفعلا لون عينيه أصفر.. فقط لم أسمع نبرات صوته ربما من شدة الهواء.. وكل ردوده علىّ كانت ابتسامات» وصفها بالجرأة والاندفاع غير المقبول وقال لها: «زملائى يقولون إن زوجة أحمد البيومى بتتنطط فى المطارات!!» اغتاظ من ضحكتها وهى تقول له: «إنها كانت تنوى أن تعرفهم بأنها حرم المقدم أحمد البيومى فى حالة إذا ما.. امتعض بطريقة ملحوظة وهو ينبهها إلى أنها تتصور أن المسألة سهلة.. سألته لماذا لم تأت زوجة الرئيس لوداعه؟ فنظر إليها شذرا فأكملت «لكن لماذا يسافر لأمريكا؟»».

فصحح لها الفكرة بأن الأمم المتحدة كمنظمة عالمية مكانها أمريكا وذهب هناك ليطالب بتصفية الاستعمار لتتخلص منه كل الشعوب مثل خلاصنا فى مصر..

رفعت وجهها عن مجموعة الصور التى بين يديها وتوقفت ذكرياتها بغتة حين واجهتها «أم صباح» بجلبابها الأسود الطويل.. وانتظرت أن تطلب منها الإفطار كعادتها ولما أفهمتها أنها لن تأكل شيئا اليوم اللهم إلاَّ شرب كميات من الماء فوجئت بأنها تشجعها وبأن معلوماتها جيدة عن فكرة قضاء يوم كامل على الماء فقط.. وأرادت أن تصرفها لتخلو إلى نفسها وتجتر بعضا من ماضيها.. هذا الماضى الذى يرجع دوما فى كل مناسبة.. هل لأنها وحيدة تسترجعه عند كل مناسبة وعند كل كلمة عابرة سواء أكانت عن شياطين أو ملائكة تسكن أو تفر من بيتها، لو كان لها من يشاركها لتردد كل إنسان قبل أن يفتح فمه.

وأرادت مرة أخرى أن تصرفها لتخلو إلى نفسها فطلبت منها تلميع بعض قطع الزينة الفضية التى تضعها هنا وهناك إلا أن «أم صباح» جلست بجوارها على الكنبة القريبة منها وبدأت تشكو لها من غياب زوجها.. «تعرف أم صباح» لا تتحرج فيما يخص حقوقها بل تعلنه بصراحة وتلقائية غريبة فتكسب تعاطفها وشفقتها فى أغلب الأحيان وهى مازالت ترمى العبارة السافرة إثر الأخرى.

وفوق هذا لها عينان يطل منهما جرأة خلقية وقدر من البلاهة تقف بعد خط الخجل حتى الغريزى.. بل لا تعرفه.. تكبرها بحوالى عشر سنوات ورغم ذلك تئن.. فهل يطول أنين المرأة بلا نهاية؟! وقفز إلى ذهن «مها» ليلة معينة قبل أن يسافر زوج «أم صباح» كان القمر فيها مكتملا وحجرتهما فى الحديقة مفتوحة وحين اقتربت «مها» سمعتهما فى اكتمال القمر كأنه يحمل الدنيا فوق جسده ليهوى عليها مرات فتراجعت فورا..

وفى اليوم التالى كانت مبكرة تجهز الشاى لزوجها على صينية مستديرة فبقيت ترقبها من النافذة وهى جالسة القرفصاء والصينية قريبة من فخذيها كأنها تحتضنها.. تضع قليلا من الماء الساخن فى الكوب الزجاجى ثم تلقيه على الأرض وتعيد الكرة مرات ليسخن ثم تضع السكر وتذيبه فى قليل من ماء البراد المغلى وتعود لتزيده بالتدريج مرة أخرى وكأن للشاى طقوساً خاصة دليل الاعتناء به فى صبيحة تلك الليلة المعينة، لم يفت «مها» أن تلحظ كحل عينيها المتقن وقد حزمت رأسها بمنديل زاه.. لوت «أم صباح» شفتيها الغليظتين دليل زهقها من غياب زوجها وأخفت مها رأسها فى كومة الصور التى مازالت فى «حجرها» دون كلام وعادت تتفرس ملامح زوجها «لو أن لى طفلا منه» وسمعت فى أذنيها عبارة المهندس «ماجد» جارها «بيت بدون أطفال يعنى بدون ملائكة» وكانت ترد على نفسها «ولكن هل كان سيظل ملاكا.. لا.. لأنه سيكبر ويصبح إنسانا بكل فجوره المادى الغائر فى عمق الطين وأيضا بكل قممه المنطلقة إلى السماء.. كان سيكون مثل أبيه.. وطنيا.. محبا.. حانيا فى بعض الأحيان.. وربما ورث عنه القدرة على الخصام الطويل» وسالت من عينيها دمعة ممزوجة بقدر من العذاب وهى تعى بأن حقيقة الألم مهما تصورت أنه عبر وانتهى فهو قابع داخلها توقظه كلمة غير مقصودة من شخص ما وعليها وحدها أن تتعايش معه.

مسحت بيدها الدمعة التى سقطت على الصور وتصلبت عيناها على صورة معينة لم تقو على مقاومتها كانت لها بجوار المستشار الروسى وزوجته. حاولت أن تتذكر اسمه أو اسم زوجته فلم تفلح.. كان صديقا لزوجها أو هكذا اعتقدت وقت أن

كان يعمل فى إحدى المؤسسات شديدة الاتصال بالمهندسين الأجانب وجاء اليوم الذى تحتفل فيه السفارة الروسية بالعيد القومى.. وبعد أن انتهى حفل الاستقبال دعاهم السفير إلى العشاء فى بيته ومعهما المستشار صديق زوجها. كل شىء كان معدا وأجلسوا زوجها على رأس المائدة من الناحية المقابلة لمقعد السفير وهى عن يمينه.. ومر الوقت فيه قدر من الود ولكنها فوجئت بالتقليد الروسى من كثرة احتساء مشروب « الفودكا».. لأول مرة تتذوقها.. كالنار صبت داخل فمها، فأفهموها أن هذا النوع من الشراب لا يجب أن يمر على اللسان إنما يدفع بقوة إلى الحلق حتى لا تتذوق الحريق.. نظرت إلى زوجها تستنجد به فوجدته محاصرا باثنين عن يمينه وعن شماله، يرفعان كأسيهما لتعاد الكرة مرة أخرى وتوقعت أن يرفض ولكن فى نفس اللحظة قام السفير من جلسته واقفا يرفع كأسه هو الآخر مشاركا فلم يكن هناك بد من أن يلقى زوجها بالكأس فى جوفه على طريقتهم الشهيرة.. ومر الوقت سريعا ، وبدأت تشعر برأسها ساخنة.. شىء ما يجرى داخلها.. الكل يهتز أمام عينيها.. لم تستطع أن تفرق بين ملامح السفير والسيدة حرمه..

شعرت بوطأة والخادم يأتى عن شمالها ليقدم لها طبق الطعام.. ذراعها ثقيل لا يطاوعها لتختار قطعة وينتهى الموقف.. وحلا للسفير أن يقوم ويرفع ذراعه بكأس أخرى وكان لزاما على الجميع القيام وتناول الشراب.. لم تمض ثوان إلا وشعورها بالغثيان كان ملحا فابتلعت لعابها أكثر من مرة.. إحساس بالخجل تملكها من أن تستأذن لتذهب لدورة المياه، ونظرت إلى زوجها مرة أخرى تستنجد به فهالها أن تجده ينتفض فجأة، وفى لمح

البرق كان يقف فوق المـائدة.. وبدأ يتكلم.. صوته عال كأنه يلقى خطبة فى جماهير..

قال كلاما كثيرا استطاعت أن تلتقط منه «إن مات جمال أو قتل جمال فكلنا جـمال عبدالناصر» ضج الحضـور بالضحك المقنن.. قـال لهم أيضـا: إن الرئـيس خـروشـوف حـين أتى عـام ١٩٦٠ ليضغط على زر تحويل مجـرى النيل لبناء السد العالى تحدث عن انتهـاء دور القومية العـربية وضرورة بروز الدور العالى للطـبقة العاملـة، إلا أن هذا لا ينطبق على الواقع العربى.. «رئيـسكم فكره السياسى أممى على أساس أن الطبقة العاملة أممية وأنها أكبر من القومـيات وتتجاوزها ولـكن فلسفة جمـال عبدالناصـر تقوم على القومية العربية لنصبح قوة عظمى ونحن نؤمن بفكر عبدالناصر»

لم تكن قد استوعبت موقف زوجها وهو واقف فوق المائدة إلا ووجدته بخطوة واحـدة ينزل فهب الجمـيع مرة أخرى يصفـقون له.. وظل واقفـا يؤكد فكرة القـومية ويشـرح حتمـيتـها.. لم تكن «مـها» قـد أفاقت بعـد كل ما جـرى والذى لم يستـغرق دقـائق.. حاولت أن تقتـرب منه فبدا لها أن مسـافة شاسعة تفـصل بينهما ورغبة فى الإرجـاع داهمتها.. ولم يكن هناك مفـر من أن تستدير لتفرغ معـدتها ولما عادت كانت لها الصحـوة كاملة.. ولما وصلا إلى منزلهمـا ارتمت بملابسـها وسكتت نائمة لـفترة كـانت تفتح عينيها خلالها أكثر من مرة فلا تجد زوجها بجوارها ولا قدرة لها فى الوقت نفـسه أن تنـادى عليه.. وأخـيرا قـامت تبـحث عنه فى الشرفة ووجدته ممسكا بالجـريدة.. لاحظت شروده فاقتربت منه وهى تقول:

– ما الذى حدث لنا بالأمس .. أنا عانيت بشدة.

– لا عليك هذه طريـقتـهم.. تقـديم الفـودكـا.. ثم المـلاحـقـة بالأسئلة، أنا الآخر تعبت جدا حتى وصلت إلى هذه الدرجة.

– فعلا .. لقد صعدت فوق المائدة و..

لم يدعها تكمل إنما سألها:

– وماذا قلت .. هل تذكرين .. ماذا قلت؟

– ألا تتذكر أنت !؟

– أذكر طبعا ولكنى أريد أن أتأكد.

فأبعدت عينيها عنه كأنها تتذكر هى الأخرى وهى تقول ببطء:

– تكلمت عن فكر الرئيس بخصوص القوميـة العربية والتأميم والسد العالى تكلمت عن خروشوف.

ثم ضحكت وهى تقول وكأنها تريد أن تخفف عنه:

– تعرف إنك خطيب فعلا.

– عـبد الناصـر يستـحق.. هو أول حـاكم مصـرى فى تاريخ مصر.

قاطعته بنبرة لها طعم الأسف الأكيد:

– لكن هل تعتـقد أنهم فهمـوا كلامك.. هل يعرفـون ماذا يعنى تأميم باللغة العربية.. وأقصى حرية للوطن؟

أجابها فورا:

– طبعا قلت لك أكثـر من مرة إنه لا يأتى أجنبى إلى مصر إلا، ويكون قد تعلم العربية مسبقا هذه بديهية.

– من أجل هذا صفقوا لك لأنهم فهموا ما قلته!؟

– وهل صفقوا فعلا!؟

– طبعا وأكثر من مرة.

انتظرت أن يبـتـسم ولكنـه على العكس قطب حـاجـبـيـه وبدا

مشغول الفكر وهو يقول:

- وهذا ما يحزننى.. ربنا يستر.

- إنت خائف؟

دفن وجهه بين صفحات الجريدة وهو يقول بحشرجة:

- لم يكن من الواجب أن أتكلم وأعلن رأيى بصراحة فى السياسة العليا و..

- ولكنك منهم .. أنتم زملاء و..

- هذا ليس مبررا لأفصح وأتكلم.

- رغم الفودكا .. فأنت لم تقل شيئا.. لم تقل أسرارا.. مجرد صداقة بينك وبين المستشار الروسى فتكلمت بما هو معروف .

بعد لحظة تفكير كان يقول:

- ما هى حكاية صداقتى للمستشار .. أصلك لا تعرفين الأجهزة حين يلاحظون علاقة بين اثنين يبدأ الشك فورا فى التآمر.. عايزين يضبطوا خطوات كل مواطن فى مصر لغاية ما يطمئنوا إنه نام فى سريره .

ثم للحظة حدق بعينيه فى أرجاء الشرفة التى يجلسان فيها ثم وضع الجريدة جانبا وهو يقول بحدة: «لقد توصلت لحل. سأنزل فورا لأكتب تقريرا عما حدث بنفسى بدلا من أن يكتبه آخر بوجهة نظر خطأ».

«ياما التراب بيلم» معانى هذه العبارة تخللتها حتى نخاعها.. إنه يأخذ أحسن الرجال المخلصين، ثم أجفلت فجأة لدرجة أن الصور وقعت من بين يديها و«أم صباح» تنتصب بجوارها بقامتها الكبيرة وبين يديها فنجان قهوة تناولته وهى تقول وأنفاسها متخطفة:

- فزعتينى يا أم صباح!!

- لأنك سرحانة مع الصور والتصاوير.

وتزامن دق البـاب مع أول رشـفـة لـهـا من فنجـان القـهـوة وتساءلت بصوت مسمـوع «لابد أنه المكوجى ماذا سألبس اليوم بالذات.. ؟» تعلم أن دعوة اليوم ستكون محفلا كبيرا وسيكون هو أول الحـاضرين؟ واتجـهت إلى البـاب تأخـذ من الأسطى «سيـد» المكوجى مابـيديه.. هو الآخر يكره كلمـة الأسطى ويفضل عليـها «الأستاذ» فهو يعمل فى الصـباح.. مديرا لإدارة أفراد أحد مصانع «الحديد والصلب» ، وفى المساء يعـمل هو وأخوته فى مهنة الكىّ ليزيد من دخله.. لم تجسر أن تسأله عن حسابه وهى تعلم أن كل ما تمتلكه خمسين جنيها ويـبقى على انتهاء الشهر أسبوع.. تردد لدقيقة ولمـا فهم استدار وهو يقول «لا تشغلى نـفسك.. الحساب بعدين».. انتـقت الثوب الذى سـترتديه ممـا أحضر.. تعـرف كيف تلبس وكيف تتـحرك؟ شابات كثيـرات يقضين فتـرة التمرين فى الجريدة التى تعمل بها يقولونها صريحة فى مواجهتها بأنها تبدو دائما فى أكمل صورة بل من الصعب أن يلحظوا فارقا فى المظهر بينهم وبينها لولا أنهـا معروفة كناقـدة تعمل منذ سنوات.. فكانت «مها» تضحك لمـثل هذه العبارات التى تسمعهـا كل يوم بل كثيرا ما يناديها رئيسها فى العمل، وهو يتـحدث معها بجدية شديدة ثم فجـأة يسألها «ماذا تأكـلين لتحافظى على رونقك هكذا» أكـثر من عشر سنوات وهى تعمل بينهم ويبدو أن رئيسـها انتبه يوما ليجد شعره قد اشتعل بيـاضا، فكان دائم السؤال «ماذا تأكلين.. وماذا.. وماذا؟» ومها تقابل هذه المداعـبات بكثير من الرضا بل تعرف أن وراءهم سـؤالا يتـحرجـون من أن يواجـهـوها به وهو «لمـاذا لا

تتزوجـين» أو مادمت بهذه النضرة فلك أن تتـزوجى.. اتجهت إلى المطبخ وطلبت من «أم صـبـاح» أن تنصرف فـلا شىء يستـحق اليـوم أن تتأخـر من أجله.. لم تنس أن تسـألهـا ماذا تريد للغـد؟ وبالمـرة تغـالطهـا فى الحـساب.. ثم انصـرفت وهى تدعـو لهـا، وأيقنت مها أن هناك نوعية من الناس تجـيد الدعاء وشعرت كذلك بأنها امـرأة تستـحق الاحترام فـرغم أنها مـتزوجة ولهـا عالمـها الخاص مع «عم مـحمد» المهـاجر إلا أنها ربت ولديهـا حتى أتقنا صنعة النجارة.. حكت لـها أنها صنعت لولديها مرتبـة يوما وهما طفـلان من قطع القطن القـذرة التى كانـت تجمـعهـا ثم تنشـرها وتجففها.

الساعة قاربت الواحدة.. وهى تريـد أن تستريح.. اتجهت تشد ضلفـتى الشرفـة وحلا لها أن تمـس الشمس الفـاترة ساعـديها وتوقفـت برهة ترى رءوس الأشجـار تتطلع إلى الدفء ينبض من داخلهـا الإحســاس.. بأن إرادة الإنسان ورغـبتـه فى الاستـمرار تتـولد وتتجـدد مع كل نفس له فيـواصل الحيـاة حتى لو سـقط نصفه الآخر على غرة تاركا إياه دون أى ترتيب!!

وأكثر من هذا حين تذكر فى أى مناسـبة بأنها أرملة يلفها نوع من الخـجل كـأنه كان لزوجـهـا الخـيار فى أن يهـجـرها ويرحل مـبـتـعـدا.. ولكن هذا الإحـسـاس لا يطول تعـودته بعـد ذلك بل استمرأته إلى أن وصلـت إلى رضا كامل ونوع من السكينة يزينه إحساس بالقوة هذا الإحساس أقرب ما يكون إلى الجنون المستقر لتقرر كثيرا على الملأ وبعبارة محفوظة بأن ما حدث لزوجها كان أفضل ما يكون لو كانت تعلم الغيب.

دوما حين يحط زخم الوحدة فى قلبها وتألم روحها تهرب إلى

ذكرياتها في خلوتها.. هل من فرط رضاها بها تألفها بل وتستجلبها؟ أم حلمها ورغبتها الكبيرة فى الاستمرار مع حياة كان لها فيها شريك رغم حقيقة الموت التي لا تقبل كلمة بعدها.

فتحت المعابر أمام نفسها لتغرق فى الذكريات ولم تقو أن تكبح سيل خواطرها المنساب المتدفق وهى تجمع الصور فوق بعضها وتعيد ترتيبها بتأن شديد الأكبر ثم الأصغر.. إنها صورة أحد أصدقائه وهو يرأس الآن بنكا كبيرا له تاريخ معروف.. زملاء سلاح.. لعله الآن أصبح جدا وبيته يمتلىء بالملائكة الأحفاد!! أول ما عرفته جاءهم ليهنىء إثر عودة زوجها من روسيا حيث كان موفدا ليتفق على شراء صفقة سلاح.. ولما عاد منحوه رتبة لواء وهو لم يتعد الأربعين ليس لأنه أنهى الصفقة فقط، ولكن لأنه اشترط بإصرار الحصول على قطع الغيار فى نفس لحظة الاستلام كحق طبيعى لمصر.. وقتها كادت الاتفاقية تفشل لرفض الجانب الروسى هذا الشرط حتى ساعة ركوبه الطائرة كان لم يصل إلى اتفاق معهم ولكن حين أغلقت الأبواب وزمجرت الطائرة لتبدأ فى العودة.. انفتحت الأبواب فجأة وأشار أحدهم إليه بالنزول وتم الاتفاق الذى يريده بقطع الغيار كاملة.. وكان جزاؤه الصعود إلى هذه الرتبة.. وكانت سابقة أولى فى وسط الجيش.. وقتها كان زملاؤه ينادونه بالبطل .. وكان سعيدا يعيش أحلى أيامه. كثيرا أيضا من زملائه اعتقلوا وساقوهم إلى السجون.. وبعضهم اعتزل الحياة وتساءلت: هل العبادة بديل إجبارى عند الاستبعاد من أتون المعارك والمناصب؟ ولما كانت تسأل عن زملائه المعتقلين أو المعتزلين كانوا يذكرونها دوما بأن هناك حدا معينا لا يجب أن تتخطاه فى أسئلتها النهمة واستفساراتها التى

لاتنتهى.. فحاولت أن تعرف بنفسها خاصة فى ذلك اليوم الذى زارت فيه زوجة أحدهم التى تعمل أستاذة فى الجامعة.. وكانت «مها» تعمل لزيارتها ألف حساب فلا يوجد مكان واحد خال فى بيتها من الكتب والمراجع.. زارتها دون أن تُعلم «أحمد» زوجها.

كانت ساقاها يلتفان على بعضهما كلما اقتربت من بيتها فهى تعلم أن زوجها صديق «أحمد» فى الضيافة أى فى المعتقل ولابد أن كل من يتردد عليها مرصود.. ودقت الباب وفتحت لها الدكتورة بنفسها وتسمرت مكانها للحظة كأن لسان حالها يقول: «لماذا تضعين نفسك فى هذا المأزق!؟» إلا أن «مها» تقدمت بخطوات مقتحمة فأحرجتها ولم يكن أمامها إلا أن ترحب بها.. وتكلما عن الجو وعن أولاد الدكتورة وقسم علم النفس الذى ترأسه.. لم يخف على «مها» أن الدم كان يسحب من وجهها مع أى دقة للباب أو رنين الهاتف الذى أفزعهما مرتين وطالت جلستهما إلى أن وصلا إلى الصمت الذى ظل لبرهات معلقا بينهما.. صمت يوغل فى الصمت لدرجة أن «مها» بدأت تتشاغل فى عد «شراشيب» السجادة التى تحت قدميها.. وهى على جلستهما نما من داخل أعماق الدكتورة نوع من الفرح الكبير من طعم التعاطف وصدق المشاركة من «مها» ولو انقطع أى حوار بينهما.. عينا «مها» تحاصر الدكتورة التى تحاول الإفلات منها بالتلفت يمينا ويسارا إلى أن لمحت دمعة مترددة تنوى أن تقفز من عينيها فاهتزت لها من أعماقها وخرج صوتها مرتعشا وهى تقول:

– مها .. أنت فى عمر طالباتى.. فقولى لى لماذا غامرت بزيارتى الآن!؟

السؤال كان صريحا فاندفعت مها:

– أريد أن أعـرف السبب وراء اعـتقـال زوجك؟ وهل تعرفـين مكانه؟ كما أنني أشعر بأنه لم يحدث شيء منه يستدعى كل ذلك.. هل من الممكن أن يكون السبب تقريرا خطأ؟

الدكتورة تطلعت بنظرها إليـها. كأنها تستكثر علـيها أن تحوى كل هذا الإخـلاص وكل هذه المشـاركة فالإنـسان وهو يجـتاز أو يعيش محنة له غالبا مـا يسيء الظن بالآخرين ويخونه التقدير إلا أنها حاولت أن تتدارك مشاعرها وهى تقول:

ـ أولا أشكرك على اهتمـامك.. كثيرون غيـرك يخافون الآن من مجرد العبور فى الشارع الذى أسكن فـيه وأنا شخصيا لا أحاول الاتصال بمخلوق فيما عدا من اعتقد أنهم يعرفون أين زوجى.

– هل هو حقا فى الضيافة.. أقصد المعتقل؟

انتقلت الدكتورة للجلوس بجوار «مها» على نفس الأريكة وقبل أن تجيـبها ابتسـمت بوهن فخرجت أنفـاسها تلسع وجهـها وهى تقول:

– للآن لم اتصل به شـخصـيا إنمـا بمن يطمئنون عليـه.. وأنا طلبت زيارته.

– ولكنك لم تقولى لى السبب؟

– لأن السـبب طويل ولا أدرى من أين أبدأ؟ ولكن أنت تعلمـين قرب زوجى من الريس «جـمال» لقد كان يأتى هنا مـرات ويسهر معه لكن لابد أن السبب اختلاف فى الرأى.

– وهل الاختلاف فى الرأى يصل إلى هذا الحد و..

قاطعتها وهى تعدل من وضع نظارتها على وجهها:

– هذه هى النقطة التى لم يفهمـها زوجى أبدا.. لأن يتصور إنه

شريك رغم أن كثيرا من أصدقائه نبهوه إلى أن «الريس» يتصور أن أى اختلاف فى الرأى هو مؤامرة عليه ومحاولة لقلب نظام الحكم.

ثم سكتت فجأة عن الاسترسال ونظرت حولها فى دورة سريعة وهى تهمس:

– هذه نقطة حساسة فى طبع «الريس».. وربما فى طبع أى حاكم.

وعاد الصمت لبرهات معلقا بينهما ثم بدأت تتكلم بنبرة فيها كثير من اللهفة:

– اسمحى لى أن أنصحك.. فأنت صغيرة.. ثم إنك مندفعة وأنا أخشى عليك والأفضل ألا تتكلمى فى هذا الموضوع – بل لو سمحت ألا تكررى زيارتك لى.. لأنى أخشى عليك وعلى زوجك نفسه. ثم التقطت أنفاسها وعادت تقول بشىء من اللين:

– من مصلحتنا أن يكون أصدقاؤه غير متورطين حتى يكون له من يدافع عنه خارج أسوار الضيافة – كما تقولين – ويلطف الأمر مع «الريس» جمال.

بعد ذلك قامت واقفة تشدها إلى انتهاء المقابلة بينهما وبذلت «مها» جهدا مضاعفا لتنتزع نفسها من كل الاستفسارات التى تغلى فى رأسها والكلمات التى تتسابق على شفتيها وأخذت طريقها تجر رجليها إلى الباب.. الإحساس الوحيد الذى تعرفه هو الخجل المعجون بالخوف من الواقع الذى تتعرفه كل يوم.. أكثر من احتمالها.. فلان أُعتقل.. فلان عُذِّب.. فلان مات فهل ينجو زوجها «أحمد» يوما من هذا المصير المعاش؟

فى العـودة كانـت تطيل النظر فى كل وجـه تقابلـه.. تستـدير لتنظر خلفها من مقعدها فى العربة الأجـرة التى استقلتها. انتبهت على السائق يوقفهـا أمام بيتها ولم تذكر له عنوانهـا ولكنه أوقفها هناك تمـامـا فنـزلت من العـربة وهى ترتجف كـأنـهـا تفلت من صندوق موتى مـغلق بالمسـاميـر المغروسـة.. علت دقات قلبـها وأحست بسخونة تخـرج من أذنيها وهى تأخذ المصعـد فقد كان هناك رجلان سيركـبان معها.. استراحت حين أوقفـا المصعد فى طابق قبلها.

ودق فـجأة جـرس الهاتف بجـوارها فأوقف سـيل ذكرياتهـا واحترقت الصور من مخيلتها.. وهى تتناوله لمحت الساعة المعلقة على الحائط كانت تقترب من الرابعة.. «وقرصة جوع» شعرت بها فأنهت المكالمة مع أخـتها التى كانت تطمئن عليـها فقط.. وخطت خطوات متعثرة إلى حجرتها وقلبت زجاجة الماء تعب منها لتوقف صحوة معـدتها.. صحوة المعدة.. وصحـوة الذكريات كلاهما يلح وابتسمت وهى تقـرر أن كلا إلى انتهاء، فالـهم مرحلة وليس قدرا لا نهاية له، ثم هناك الرحـمة بعد الهم لأن هناك الله.. مـا كان كنا مضطرين إليه. هوانٌ كـان لابد من دفعه مقابـل الحرية المنشودة بكل أبعادهـا فسقطنا فى أظلـم مستنقع حـتى اصطدمت رءوسنا بقاعه ولكننا سنعلو ونعلو من جـديد.. سنتعلم الوقوف لنعرف أن نخلق حـتى من سـقـوطنا الـواقف قـوة دفع جـديدة تقـودنا إلى السطح أسرع.

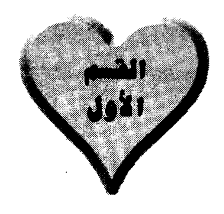
وقفت أمـام المرآة وتحسـست شعرها كـان مازال نديا.. بدأت تصففـه.. فتحت دولابها واخـتبرت أزرار الثوب الأمامـية.. غرقت

فى قشعريرة لثوان من برودة الحجرة التى انفتحت نافذتها فجأة.. وهى تغلقها عرفت أن اليمامة هجرت عشها. طارت إلى أمل جديد ولو كان مجهولا.. هل رحلت بشكل نهائى؟ أم أنها ستعود مكسورة الجناح تريد أن تحتمى فى عشها الذى لم يسعها يوما.. ربما وربما لا..

جهزت كل ما سترتديه ووضعته إلى جانب فراشها ولم يبق إلا أن تنام لتستعيد نفسها.. أزاحت الصور فوق بعضها بزهق وتعمدت ألا تنظر إليها.. هزت رأسها أكثر من مرة وكأنها تحاول أن تسقط منها كل تلك الأحداث ودستهم فى أحد أدراجها.. هل يكون للماضى عندها جميع الحقوق فيستولى عليها حين يريد ويفرض نفسه.. مقهورة أمام ذكرياتها.. ولكن هل كان فى مقدورها أن تستحضر ذكريات معينة وتسقط أخرى.. لو كان بإرادتها لعاشت كل لحظاتها مع «خالد» ذلك الأمل الجديد القديم الذى تحياه الآن والذى لا يفارقها فى كثير من الأحوال وهى تعمل فى الجريدة.. وهى تشاهد فيلما ولكن لماذا استولت عليها ذكرياتها كل هذا الوقت من عمرها.. هل هذه حالة من تصلب الشرايين لعامل السن .. لمن هم فوق الأربعينات يتوقف فيها العقل عند أحداث معينة تلح عليه وتستفزه تصعد وتهبط معها، تدير دماءها فى رأسها تأكل خلاياها ولا تملك خلاصا منها؟.. ودلفت إلى فراشها، كانت رعشة جسدها واضحة تبينتها من يدها التى تحتضن وسادتها.. جسدها يندى كلما أحست بأن ساعة لقاء «خالد» تقترب وكأنها تهرب عن عمد فى كل حكاوى الصباح مع الصور والذكريات.. لا تعيش طعم اللحظة التى تنتظرها بعمرها

الباقى بل تخاف مما سيأتى بعدها.. من لحظة فراقه التى تسلم فيها عليه مثل كل النساء! وكانهما غريبان! ويكون لزاما عليها أن تستدير لتبتعد خارجه رغم أن ظهرها يتحول كله إلى عيون تستميت فيه لتبقيه داخل مقلتيها وإلى الأبد بينما هو لا يتمسك بكفها عن عمد ليستبقيها.. خوفها من إحساسها أن حبه آيل إلى غروب وانتهاء يستشرف النسيان الذى ترفضه تماما.

استدارت من رقدتها لتبتلع «قرص» مهدىء ونامت تستعجل أمنيتها فى أن تراه.



الفصل الثانى

زارها فى حلمـها ، حـضوره أيقظهـا فورًا لا تصـدق أنه ليس موجـودا.. ولا قدرة لهـا على النوم العمـد لتبـقى معـه.. نبضـها يهزها.. جزء من نفسها يعـرف أنه كان حلما والجزء الآخر يسمع صوته وضعت يدها على النور وتلفـتت حواليها حافيـة جرت تعد قهوتها وسحبت قطعتى الثوب الداكن الموضوع بجوارها من عمق زرقته يبدو أسود.. لونه لا تستطيع أن تقطع به، لأنه مراوغ اللون يعطى أكـثـر من ظل فتـتـوقع تمـازجا بينه وبيـن لون شعـرها، حرصت على أن تختـار أجود ما لديها من المـلابس الداخلية لأنها تعدل من هندسة ما تلبس.. وبقية من حـضوره مازالت محسوسة فتتحرك بين مرآتها وصوان مـلابسها بنوع من الخجل المحسوب وكانه حواليها.. لا شئ يحجبه.. لا بعد بيته ولا كل تلك المسافات التى تفصل بينهما فكانت حـركاتها داخل حجرة نومها فيـها كثير من التأدب والحياء.

أكثرت من عطرها وهى تدس الدعـوة فى حقيبتـها.. تعرف أنه لن يسألهـا أحد عنهـا قبل دخولـها ولكن حتى تبـدو أنها تحـترم أوليات دخول المجتمعـات.. إنه نوع من التعالى المتواضع، فالكل يعرفها بل ينتظرها ولكن حين تتوقف فجأة لتخرج الدعوة بفعلتها هذه يتعـالى أكثـر من صوت ليـقول : «اتفضلى يا أسـتاذة مـها» تأكدت أن مفتاح البيت فى حقيبتها وتركت بعض الأنوار مضاءة.. تخاف العتمة عند عودتها وحيـدة دائما.. تعتبرها «بروفة» متكررة

لدخول القبر «وآه يا ربى من الوحدة والظلام والخرس» اختارت أيضا أن تترك الراديو مفتوحا على محطة «القرآن الكريم» بعد حوالى أربعين دقيقة كانت على أعتاب الوصول.. عرفت المكان من وجود رجال الأمن، رغم أنها لا تجد الأمر يستحق فهو معرض لفنان وليس ساحة مبارزة ولكنها «موضة» أن يقف رجال الأمن عند المحافل الثقافية وكأنهم يخشون من ثقافاتهم أو أن المثقفين أنفسهم يعتبرونهم ضمن مستلزمات الديكور والأبهة. خطواتها ثابتة وإن شابها بعض الخيلاء تتقدم فى تأن واعتزاز، وعند الباب كان الفنان يقف وبعض أصدقائه خطا معها خطوات إلى الداخل ولكنها استوقفته مكتفية.. جمهرة تقف فى الداخل.. لم تعثر على إنسان واحد لا تعرفه.. فهم أما زملاء المهنة أو المشتغلون بالفن. من لا تعرفهم هم أقارب الفنان نفسه ولكنها استطاعت أن تتعرفهم من قرب الشبه.. اطمأنت إلى وجود مساعديها.. شابان للتصوير.. باقات الورد تحيط بالبهو كله ولم تدر لماذا بدأت تعد فى رأسها هذه الباقات ثم بحسبة بسيطة كانت تضع لها تقديرا ماليا..

السينمائيون يأتون دوما متأخرين ولكنهم يجيئون ربما عن حب للعارض وربما ليبدو أنهم يتابعون الحركة التشكيلية. فى وجودهم لا يمكن أن تنشغل الرأس إلا بالملابس والمجوهرات.. كل واحدة كأنها خرجت لتوها من «بوتيك» فى باريس. شخصيات سياسية وعلمية.. الود موصول بين الجميع والقبلات «لبانة» يلوكونها خاصة بين الرجال.. شىء ما ضغط على نفسها من فعل القبلات.. إنهم زملاؤه أتوا ليظهروا فرحتهم بلوحاته وينفوا عن

أنفسهم صفة الغيرة مثلا. والقبلات ما زالت أوضح فعل فى هذا الجمع.. وكانت كلمات معينة تسمعها فى أذنيها فكثيرا ما تشكر الممثلة الساقى الذى يقدم لها ما بيديه بعبارة «شكرا يا حبيبى أو يا حياتى» لا تدرى لماذا حواسها الليلة بهذه اليقظة فإن ما يجرى الآن يجرى فى كل محفل وكل يوم والمفروض أن تعتاده، أكثر من الساعة وهى واقفة إلى أن تم الافتتاح ودار صاحب المعرض مع الشخصيات المسئولة يستعرض لوحاته ويشرحها.. إنه عمل مبهر يجعل النفس تجيش رضا عن ذلك الإنسان الذى قام بكل هذه الخطوط وحده.. والذى لا شك فيه أنه أتت اللحظة التى توحدت فيها كل النفوس على الرغبة فى البوح والاعتراف أنهم أمام خلق من صنع إنسان.

والفنان يبدأ لوحاته من خط الضوء الأول يجسده من مفهومه فى لوحة ويرتفع مع الوهج الذى يتربع على الكون فى لوحة أخرى حتى يصل إلى الغروب والغروب فى لوحته مفاجىء.. ولكن لماذا لم يمهد له؟ فالشمس حين تصل لذروتها تعرف أن مآلها إلى غروب أكيد وتشعرنا بذلك. فلماذا لم يمهد للأفول ويجعله حثيثا وسألته «مها» فكانت اجابته حتى يعطى الاحساس بالضوء أكثر اشعاعا ويكون الغروب مباغتا. فرحت من تفسيره لأنه يتطابق مع رؤيتها إلا أنها علقت «ليتنا نعمل حساب الغروب فى كل أمورنا قبل أن يباغتنا» وضحكا سويا إلا أنه نظر إليها مليا وهمس قريبا من أذنها «من هم مثلك لا غروب لهن» لوحات تشكيلية أخرى حرص على أن يشرحها لضيوفه.. لوحة أكتوبر.. بسيطة جدا رجل مسن يحتضن حفيده ويحميه فى نقاء اكتوبر

وحافـة الموجة عند قـدميهـما كلها حـمام أبيض والطفل مبـهور والجـد دموعـه تتخلل غـضون وجـهه الكثـيرة.. اكـتوبر طهـرنا ووحدنا..

وفجأة اشتعلت الأنوار تدفىء المـكان.. إنه حضور التليفزيون يتسابقون لأخـذ الكلمات ولو كانت قصيرة مـن صاحب المعرض يأخـذون أيضـا بعض انطبـاعات من الحـضـور.. السـعادة عـبق محسوس تكاد تتلمسه يغمر المكان والكل يقولها صريحة لبعضه «كل سنة وإنت طيب» أعيـاد العبور.. الكلمات فـيها صدق. أعـياد العبور معنى توحد فيـه العرب فكما أن الرب واحد فالوطن واحد.. بعد فترة انصرف المسئولون وبقى الجميع أكثر تآلفا وأكثر ودا.. بين صاحب المـعرض وضيوفـه فرحة موصـولة ونظرات الرضا متبادلة وإن وضح فيها التمنى، أن يكون لكل واحد منهم نفس هذا الموقف بنفس هذه الزوبعة من الأحاسيس.. مذيعـة صغيرة كأنها قطعة حلوى تلف نفـسها فى ورق مـفضض.. تقترب منهـا تحمل ميكرفـونا والإضاءة تسـبقـها تريد أن تأخـذ منها الرأى «ومـها» تخـشى من أعمـاقـها الوقـوع فى فكرة التناقض فـقد تقـول رأيا سريعـا يغلب عليه المجاملة ثـم يختلف هذا الرأى مع ما ستكتـبه بعـد تفكيـر وروية، فـغـالبـا قبـل أن تكتب تأتى وحـدها لزيارة المعـرض تتفـحص وتقيس فى رأسهـا بهدوء والأيام القـادمة لن يكون فيها هذا العدد.. وهمست لنفسها «اضخم معرض ينتهى فى اليوم الأول لافـتتـاحه» انفلتت من أمـام المذيعة وهى تـقدم على نفسـها أحد اسـاتذة كلية الفنون واسـتطاعت فى نفس اللحظة أن

تندمج بلطف فى حوار جانبى مع سيدة أخرى ومن نوعية مختلفة.

إنهن عاشقات الفن لا يعملن به ولا يكتبن عنه، ولكنهن هاويات له تدفعهن دوما رغبة من داخلهن لمتابعة أى محفل ثقافى.. وصار مع الوقت حضورهن ضرورة. فهن عين الجمهور الواعى والذى يمنح الفنان الصدى الفورى لوقع أعماله.. إنهن مثل مشاهدى المسرحية أو الفيلم فى عرضه الأول.. انخرطت معها «مها» فى حوار فى الوقت نفسه كانت تدقق فى ملابسها.. فهذه النوعية تملك قدرة مادية تتسيد بها فى أغلب المحافل أو تتناطح بها حتى مع المتخصصين.. والأهم من كل ذلك أنهم يحتضنون الفنان فى أحوال كثيرة.. يمنحونهم أماكن خالية كمرسم هادىء.. أو يروجون أعمالهم حتى عالميا..

فليس بغريب أن تجد أعمالا لفنانين محليين تزين أشهر المؤسسات والأماكن العالمية.. وفوق هذا يقتنون أعمالهم بل يدفعون فيها ما لا يستطيع كثير من المتذوقين والزوار العاديين أن يدفعوه.. وهم أيضا ممن يرسلون باقات الزهور. كانت «مها موسى» على وقفتها تقرر بينها وبين نفسها بأن الفن حتى فى أزهى عصوره يحتاج دوما إلى الاحتضان.. فتمتلىء جيوب الفنان لأن هذا مصدر عيشه.. ظلت «مها» أمام تلك الهاوية بأسئلة قصيرة ومتتابعة والأخرى تجيبها بإسهاب عن انطباعاتها وسبب حفاوتها باللوحات وكان رأيها فى أغلبه رفيع التبرير والتقييم وفى الوقت نفسه تسمع حوار المذيعة من طرف خفىّ، وهى تشعر بأن كل هذه الانطباعات تفيدها.. وكل تلك الآراء تستفيد

منها فى تقييمها النهائى، بل إنها لا تهدأ إلا إذا شعرت بأن عقلها امتلأ بردود الأفعال والأقوال والآراء.. وهى حقا بدأت تشعر بالامتلاء وبأن مقالها تقريبا كامل فى رأسها لا ينقصه إلا زيارة أخرى دون كل هذا الضجيج.. بارتياح كانت تواصل استماعها لها ومازالت الملاحظة ساطعة داخلها من أن الوجوه كلها معروفة لها.. فلا يوجد إنسان واحد لا تعرفه اللهم إلا بعض رجال الأعمال والذين يشتغلون بتجارة السلاح على وجه التحديد وكأنهم بمجيئهم هذه المحافل الثقافية ينفون عن أنفسهم أنهم يتاجرون بأرواح الناس.

أحست بالعطش وكانت المائدة بعيدة عنها ولم تفتتح بعد. انتظرت مرور الساقى وأرادت فى الوقت نفسه أن تريح عقلها فعادت تقلب عينيها يمينا ويسارا دون تدقيق وعرفت ملاحظة معينة وهى شدة أناقة الحضور.. هل المثقفون بهذه المقدرة على الأناقة.. عقلها يقول لا ولكنهم يعتمدون على ذوق الاختيار فى أعلى درجاته خاصة الرجال. ليس هؤلاء من تراهم فى مكاتبهم فى الصباح!!

أما فنانات السينما فالقدرة المالية الباهظة واضحة، ومع ذلك فالمثقفون لهم مذاق وأسلوب خاص، وليسوا «فتارين» للعرض.. تقف فى المنتصف أناقة المذيعات فلا هم إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ولكنها لمست فقط الجهد المبذول فى عملية توفيقية رائعة.. ومن أين لهم بغير ذلك والكادر الحكومى معروف !!

وافتتح البوفيه.. ولم تجد فى نفسها أى رغبة لتتناول شيئا ذهب الجوع.. وكان العطش وقتيا ويبدو أن انشغالها بعملية

المقـارنات التى لم تهدأ فى رأسـها وكذلك الانتظـار الطويل جعل معدتها تنقبض عن الرغبة فى أى شىء.

وهى تحـملـق أحـيـانا هنا وهناك عـرفت فـى الوجـوه بعض الشـخـصيـات العربية ولو لـم يكونوا فى زيهم المعـروف.. نساء ورجالاً والكل يطلق عليهم لقب «شيوخ» فى عيونهم معنى الدهشة من ذلك الإنسان المـصرى المسحوق ومع ذلك فـهم فنانون حتى النخـاع. وكان فى إصرارهـم على الاقتناء والشـراء لا يحسـبون حسابا للمادة.. ولكنهم يشترون فقط الجمال وتساءلت وهى تفكر «بعـد أن يشتـروه، هل لديهم الوقت ليـحسـوا مذاقـه أم أن اللذة تنتهى بـعد الاقتناء لأنهم مـغمـوسون فى التكنولوجـيا ولا وقت للفن. هم أيضا يعملون فى تجارة السـلاح بل إنهم حيتان السلاح فى شرقنا ، وما حضور المحافل الثقافية إلا واجهة تموه عن واقع محدد.. ولأن الحـضور أصبح موضة فى مـصر.. فلابد أن يكون كذلك فى بقية الـعالم العربى قشعريرة انتفـض لها جسدها وهى تقف على كعبين عاليين.. كعود، نرجس وحيد مالت حتى استندت على طرف المـائدة واعـتـدلت مكـانهـا وهى تلمح سـاعـة يدها.. العاشرة.. وشىء ما بدأ يتسرب داخلهـا بإصرار وسرعة كالسيل الكاسح.

يأكل فى صـدرها.. يحفر داخلـها مجـرى لتتـجمع فـيه أمطار قلبهـا.. هل شتاء هـذه الليلة ينبؤها بغيـاب «خالد»؟ لا يمكن فـهو يحب الشتـاء مثل الصيف يتـحرك فيـهما دومـا. إنهم يقولون إنه ديناميكى يعشق التجوال.. مجـرى الألم شرخ يشقها نصفين وهل يتسـع أكثـر ليصبح نهرا؟ وهل حقـا لن يأتى ؟ لا يمكن، فصاحب

المعرض صديقه فكيف لا يأتى ؟ «رباه لقد اخترت لون ثوبى لأنه يعجبه واسدلت شعرى على طريقته المفضلة» سمعته فى أذنيها يقول : «إن شعر المرأة سياط على ظهر الرجل».

وفُتح الباب مرة أخرى مثلما يُفتح كل دقيقة.. بنظرة يائسة التفتت كان هو بقامته الرحبة.. وصلها صوته الأجش.. لا يهم ماذا قال وهو يدخل.. المهم أنه أتى.. يرتدى بذلة سوداء.. لثانية ضغطت على أسنانها وتمنت لو تستطيع أن تشق البذلة وتنفذ داخلها لتبقى لصيقة تتنفس دفء لحم صدره.. توجه من فوره إلى العارض وسمعته بوضوح يعتذر عن التأخير.. فى ثوان كانت تستعيد نفسها.. تتحسس حقيبتها تحت إبطها ونزلت بيدها تتلمس صدرها وخصرها ونهر الضيق الذى كان سيقتلعها تراجع وجف فى مجراه.. ودار قليلاً «يتفرج» ولما لمحها على وقفتها بجوار المائدة. بذل جهدا لينفذ بين الحاضرين ويناديها باسمها.. إنغسلت فى ثانية وأصابعها فى كفه.. استراحت كل أوتارها المشدودة وقد أحست بخطوط كفه خطا.. خطا فبقيت لبرهة ساكنة تقرأ خطوطه وفى نفس اللحظة يتسرب عنها العذاب الذى بداخلها فى تؤدة وتأكيد. نقطة. نقطة من دمها تتطهر منه. اجتاحها حضوره بأبعاده كلها.

فذابت صريعة والقلب يرتعش.. الحب لا يختزل فى عبارات فلم تنطق بكلمة واحدة. كطفلة لا تعرف أولى الكلمات لتعبر بها رغم أن ما بداخلها أكبر من احتمالها وصبرها.. كمن ابتلعت لسانها فلم تقو أن ترد حتى تحيته.. وكيف ترد والكلمات تسابق بعضها البعض ولا يصل إلى طرف لسانها أى معنى لتقول ما تريد أن

تقوله.. والخوف توأم الحب تخاف من يقينها بأن هناك جفاءً من جانبه.. برفق كان يترك يدها بالتدريج لتنفلت من بين كفيه، فعادت فورا تشعر بالعذاب ويطاردها تساؤل.. هل يمكن أن يحتوى كفه أصابع امرأة أخرى من هذا الجمع؟

ونَصْلٌ صحا فى أحشائها فشدت من قامتها وأخذت شهيقا واهنا. هذا كل ما استطاعته.. والتف آخرون حوله يتكلم ويتكلمون والنصل داخلها.. سحبت شيئا تشربه وبذلت جهدا كبيرا حتى لا تحمل له كوب عصير وتمشى بين الجمع ببلاهة لتقدمه له.

وأدت رغبتها وهى تضغط بأصابعها على الكوب.. خافت أن تكسره وتمنت أن تكسره لتهرب فى لملمته عنه.. تتلمس أى سبب لتحاول أن تحجب حضوره الفائق عن كيانها.. وجوده أكثر من احتمالها.. وجوده حرام.. وتساءلت هل هذا جنون الحب الأخير.. حب ما بعد الأربعين.. وتذكرت أمها بعد أن استشهد زوجها كانت دوما تحذرها من الحب الذى يأتى كآخر أمل.. مادت الأرض تحت كعبيها. فلفت حول نفسها لفتين وإن تظاهرت بأنها تبحث عن شىء ما.. ولم تدر أنها تبحث عن نفسها. تريد أن تتفق مع نفسها على رأى واحد لأن نفسها أصبحت نفسين، واحدة تخاف حبها وتتمنى خلاصا منه، والأخرى تتساءل لماذا تحبه إلى هذا الحد؟ وفى هذا العمر بالذات «على كبر لقد تعبت. تعبت» عرفته بحكم عملها.. فتربى إعجابها به متأنيا.. كان يعمل فى أحد مراكز «استقصاء الرأى العام والإحصاء» فيه رحمة لا يقوى على جساره رفض أى طلب لإنسان وأيضا لا يملك جسارة المراوغة مع من أمامه ما أن يفهم مطلبه حتى تكون يديه على الأزرار

والأجراس لينهى إجراءات كثير من الأمور..

عنده تنهد جميع الحسابات والمعادلات التى تقول «إن فاقد الشىء لا يعطيه» لأنه كان فاقدا لكل شىء فى طفولته من فقر إلى حرمان.. ربما هذه الحقيقة ما جعلتها مفتونة به.. لأنه يعطى غيره حين تمكن من ذلك.. كانت تتحين أى فرصة لتتصل به. تفرح وهو يقول لها عن أرقام ونسب أى احصائية قام بها.. تحس معه بأنها تعرف الأسرار الحقيقية بلا زيادة أو نقصان وقبل أن تبوح بها جرائد اليوم التالى. فله الكلمة الفصل فى كثير من القضايا لأنه يتكلم بالأرقام وليس بالشائعات تابعته منذ سنوات وهو ينضج أمامها وتصقل تصرفاته كما تصقل موهبته.. والأكثر أنه كان يعشق الكلام بالفرشاة على قماش مشدود. لم يكن رساما تشكيليا. كان هاويا فقط. حين يرسم وجوهه يحكى تاريخ كل وجه.. ترى فى اللوحة البداية وتتوقع للشخصية التى رسمها نهاية محددة.. اتخذ من «مها» لسنوات «موديلا» له دون أن يصارحها ولكنها كانت على استعداد أن تقسم لمئة مرة أنها هى المطبوعة فى لوحاته، كان ذلك قبل أن ينفصل عن زوجته الأجنبية.. عادت إلى بلادها بعد أن استحلبت كل ما تتمناه من الشرق حتى الامتلاء من سحره.. من لياليه.. ومن صدقه وصلت إلى حد التشبع من فحولة سلوكه وعطائه.. وكان وجودها كأجنبية يستنهض الرجال من حولها ليفكوا لها رموز ما ترى ويفرجونها.. يتكلمون ويتكلمون.. يشرحون لها أفكار المصرى العظيم صاحب أقدم عطاء.. وكانت مسحورة بما ترى وكانت تتابع عن وعى أيضا كل ما يبذل من خطوات.. يبذلها المصريون

نزوعا نحو مستقبل أفضل بلا فروق..

كانت تتتبع نمو أشكال كثيرة من الطبقات ما كان يمكن لها أن تحلم مجرد الحلم بما وصلت إليه.. وفى البدء كان انبهارها كبيرا وتوقعاتها كثيرا ما تصح.. وفى النهاية وقبل أن ينفصلا بسنتين كانت بعيدة وكانت متوترة وكانت تعلن لكل من يعرفها : «أنا أعرف خطواتكم.. لقد مررنا بها من قبل.. إنها مراهقة الشعوب.. ترديناً، ثم بدأت تقوم لنا قائمة على كل المستويات» ، وكثيرا ما كانت تكرر قولها : «وآه من يوم يستيقظ فيه الشرق. يصحو داخلكم الإنسان الفرعونى ستحاولون مسك السموات وتسيير النجوم» ومها على وقفتها فى المحفل تبتسم بينها وبين نفسها لمرور كل تلك الخواطر إنها تسترجع تاريخ حياتها معه.

وابتسمت مرة أخرى بنوع من الخضوع الذى لا مفر منه لكل تلك الخواطر، فلقد وعت أنها لن تستطيع أن توقف هذا السيل من الصور.. والجمل.. والذكريات بل تمسكت بهذه الصور والذكريات بعينيها تسترجع.. وتسترجع كل تلك اللحظات ربما لتجد مهربا من هذا الحب نفسه الذى أتى «على كبر» وعادت تعى وهى على وقفتها، أن الذى لا شك فيه أن بيت «خالد» أيام زوجته الأجنبية كان قريبا من المنتدى.. يتجمع فيه الأصدقاء تؤسرهم بساطته.. يبدو عفويا فى كثير من تصرفاته فيتركهم ويذهب إلى المطبخ يغسل الأطباق ويعود ضاحكا وهو يقول : «مبدأ تقسيم العمل وحتى انتهى منهم قبل أن تخرجوا» ،وفى مرات أخرى كان يضحك أيضا قائلا : «ها أنا مصرى أشارك زوجتى فى أعمال البيت. أظن أنه لا فرق بينى وبين أى متحضر آخر من بلاد

زوجتى» إلـى أن يبدأوا فى الانصـراف والامتنان، هو الإحـساس الوحيد الذى لا غيره تجاه بسـاطة وعفوية «خالد» رغم أن أغلبهم كثيرا ما يخرج بجراح خلفتهـا لهم زوجته، فقد كانت شديدة النقد تعيب عليـهم إذا أتوا مبكرين دقائق وتعيب عليـهم إذا تأخروا فى انصرافهم دقائق..

وخـالد يحـار بينهـمـا فـلا يدافع عن وجـهـة نظرها ولا يلوم أصدقـاءه إنما يتـرك دفة الحـوار من أساسه ويـتشاغل بمكـالمة هاتفية أو قراءة ورقة إلى أن تنتهى الزوبعة لتبدأ زوبعة أخرى من جديد حـول مسـألة الانجاب وولع المـصرى ليكـون رب أسرة.. وبعبـارات مثل الرزق على الله. والطفل يولد ورزقه قـبله إلى آخر عبـاراتنا المغمـوسة فى أعمـاق تاريخنا وتراثنا السحـيق وتوجه زوجتـه كلامها إلى «مـها» وهى تزهو بمدى اقـتناع ابناء شعبـها بفكرة تحديد الـنسل إلى أقصى درجة حـتى يمكن أن يُعطى لطفل واحد ما يُعطى لستـة أطفال فينشأ مرفها ودارسـا ومسافرا يرى البلاد بدلا من سـتة أطفال فى فـقر وحرمـان ولا تكتفى بذلك بل تنظر إلى خالد زوجها وتقرر عنـه بأنه كان يتمنى أن يكون وحيدا أفضل من أنهم كـانوا أربعة يقاسـون.. وتظل تحاصره وتحـرجه بأسئلتها وهى تتصور أنه وحده الذى له إخوة كثيرون ولا تعرف أننا كلنا لنا نفس الـحال. فكانت كلمـاتهـا تمثل احـراجا وضـيقـا للجميع وإذا مارد عـليها أحد الحاضرين بوجهـة نظر معينة طلبت أن يكلمها بفرنسيتها لغـتها الأم !! وفى مرة ردت عليها «مها» بأن فكرة وليـد فى الأسرة هو الـشىء الوحيـد التـرفيـهى فى حيـاة الأغلبية من المصريين، فنحن لا نعرف مـثلا إجازة نهاية الأسبوع

المقدسة لديكم.. ولا نعرف الجرى وراء أنماط الموضة.. إن ما يساعدكم على هذا دخولكم الكبيرة وذلك الاستقرار والأمان المستقبلى أما نحن فدعينا ندخل السرور على أنفسنا بطريقتنا ولو كانت قاصرة ويوم يرتفع مستوانا لابد أن التحديد سيأتى للوعى بأن هناك أشياء أخرى فى الحياة تستحق أن تُمارس.

طال عليها غياب «خالد» مشغولا بالكلام الذى لا ينتهى فى هذا الحفل فانسحبت إلى مكان آخر وهى تشعر بأن زمن هذه اللحظة يوغل فى قسوته عليها ،فلماذا لم يحاول أن يخصها بكلامه.. هل يؤكد بعاده عنها أم أنه يتجاهلها ؟ وتلحظه بطرف خفىّ منغمسا بكلياته واهتمامه بإحداهن.. فعرفت طعم الحريق وتمنت أن تموت فى لحظتها ، تدفع الثمن من عمرها لتوقف تدفق اهتمامه الذى لا ينتهى بمن يكلمها. ولم يكن هناك بد من أن تستدير وتلتفت للمائدة تتناول أى شىء.. أى شىء وشعرت بهبة سخونة لفحت ظهرها.. شكت جبهتها وتدفق العرق يبلل شعرها يسيل خيوطا تحت ملابسها الداخلية.. لابد أن تزور طبيبها فهذه اللفحة تتكرر مع أى انفعال هل هذه سمات سن اليأس ؟ لا تدرى لماذا عادت تتذكر زوجة «خالد» الأجنبية؟ هل لأنها تقارن نفسها بها وتحس بأنها تتفوق عليها وردت على نفسها «أى تفوق يابت» وهو مشغول بألف ألف امرأة ! رباه كل هؤلاء لا يشبعن من الكلام «والرغى» معه.

وبهدوء وصبر كانت تعى أنه مهما كانت المقارنة فى صالحها إلا أنها تقف دائما عند الحافة ، خيط رفيع يقف لها بالمرصاد بين تفوقها وسقوطها.. لو أن عمرها أقل عشر سنوات من حقيقتها

لتفـوقت بكبرياء وجـسارة.. وخطفت نفـسا بانكسـار وهى تقرر لنفسها بأن سن اليأس الذى تعيشه واقعا وحقيقة، لا حل لها، ولم يكن هناك بد مـن أن ترضى عن طيب خـاطر بأن تجـتـر حكاوى زوجة خالد الأجنبية حـين كانت تندفع صارخة وهى تقول : «أف لكم لقد أصبـحت بلادكم لا تتميز عن بلادنا فـى شىء.. لقد كانتَ ميزتكم أن الطـعام عندكم بلا هرمون، أما الآن فاللـحم بالهرمون والخضـر والفاكهة تسـقى هرمونا» يومهـا نظر إليها الجـميع فى دهشة ولم يقدروا ما ترمى إليه.

وانفض الجـميع كل إلى حـاله.. البعض يقـبض من داخله على حمـاس اللحظات والمـرامى التى يتكلمون فـيهـا والبعـض الآخر سرقته عجلة الروتين اليومى إلى أن فـوجئوا بيوم لابد فيه من أن يذهبوا إلى زوجة خالد لتقديـم واجب العزاء، فقد ماتت زوجة ابن عمها فى بلادها.. وبعدها تكرر سـفرها وفى المرة الأخيرة لم تعد من هناك فقد شـبعت حتى الامتلاء ربما من فحـولة الشرق وربما من تتبعها لأحداث مكرروه كانت تسميها فترات مراهقة الشعوب.. وربما لتقضى بقية عمرها تؤنس وحدة ابن عمها..

فى تلك الأيام كان «خالد» ضعيـفا وهشا وكان فى حاجة إلى أصدقائه وزملائه فبدأ وجود «مها» معه.. فى لحظات صفائه فكان يرسمها وتتجسـد يوما بعد يوم فى لوحاته.. كان كل شىء رائعا ومهيئا. فإعجابها به موجود واقتناعها به تعيشه وتمنت أن ترتبط به وقالتها : « أنا وطنك.. أنا غـدك» فى البدء طلب منها أن تنتظره فهـو غير قـادر على اتخاذ القرار.. ثم سـرقته فرحـته بامتـلاكه حريته كطفل يتعلم الحبـو.. فصار يخطو هنا وهناك حتى لو كانت

خطواته بلا هدف، والأصدقاء من حوله يملأون فراغ أيامه..
و«مها» تعيش أيامها تنتظر أن ينطق بقراره فى أى زمن غير محدد.. مفتوح ولو بعد عشر سنوات.. يعيش «خالد» داخل كيانها.. تعيش متلبسة به.. محاصرة منه باختيارها وحريتها وإن كانت هذه الحرية بلا آفاق.. حقيقة أسوارها قريبة من إنسان عينها . فكانت تتساءل بوهن «لماذا أحبه إلى هذه الدرجة؟» وهل أحبته دون أن تدرى منذ سنوات وكانت الظروف كلها لا تدع مجالا لامكانية أن ترتبط به «من زمان» وهى تمر عليه فى مركزه فى طريق عودتها إلى بيتها لا لشىء إلا لتمتص دقائق وجوده أمامها ولو للحظة وتراه مشغولا حتى الغرق فى الأوراق والأجراس والباحثات والموظفات فينطفىء وهج قلبها ولذعة الغيرة الرعناء تتربع بين نهديها توقف مجرى الهواء إلى حنجرتها فتنتصب واقفة تستجمع أنفاسها المتخطفة وتقسم بأنها ستحاول أن تنساه وأن تتحكم فى لهفتها ونزقها.. وهى تجر نفسها خارجة من عنده تلمحه مرة أخيرة فتتهاوى صريعة يثقل عليها إلى أقصى مدى حتى قالت له : «الحياة خاطفة أقصر من ألا نعيشها، وقد لا نستطيع استعادتها خالدى» اشترط أن يكون بينهما علاقة كاملة أولا وقال لها : «أنا فى عمر لا يسمح لى بغير ذلك» ، عبارته الحرام آلمتها إلا أنه قالها بعفوية كطبيعته، فأعطاها الإحساس الكامل بأنها أمام طفل مشاكس.. ويومها رفضت ولكن آه عن لوعة الحب. وجنون الرغبة فى التواصل.. وأعادت التفكير وهى تكلمه بعدها بأيام :

– أين أنت يا خالد؟

– بل أين أنت. إنى لا أفهمك؟

– إنى وحيدة أتعذب.

– إنك غير متحضرة.

– وأنت تستنزفنى.

– هل نحن يا «مها» فى حرب. الحرب انتهت وانتصرنا!

– لا تنس أننا انتصرنا بالصمود. هل من يصـمد دائما ينتصر خالدى؟ نقاط نبضهـا نقطة.. نقطة هى الخط الذى بينهما وتجرى عليـه كلماتها الـقصيـرة إليه. وحـين توقف ساكـتا شـعرت بأن دموعها ترتد داخلـها لتغرقها ، فلم تجرؤ علـى أن تضع السماعة وهى موزعـة بين معنيين القسـوة اللا متناهية وفى الوقت نفـسه الود المحسوس من كـلماته وقررت بينها وبين نفسهـا أنه يكفيها أنه يحـاول إقناعهـا.. إن هذا يعنى أنه لم يقـتلعهـا من نفسـه. ثم عادت لتـقنع نفســها بأنه خـارج لتوه من تجـربة فيهـا كثـير من الجور، وبأنه انفلت لتـوه من سجنه المحسوب مع أجنبـيته ولعل هذا مـا جعل فكرة الإقـدام على الارتبـاط بعيـدة على الأقل الآن.. فتشت له عن الأسبـاب والذرائع وقالتها لنفسهـا إنه ليس مراهقا لتخشـاه ،بل إنه شديد الحساسية والفـهم.. وهو أهل للثقة.. لوت عنق نفســها.. انتـصرت عليـها واستـراحت.. نجحت أن تطوعـها لتتلاقى مع رغبته واستراحت مرة أخرى.

وفى اليوم المعروف ذهبت إليـه.. وعند اللحظة المعينة تصلبت وضـاع منها الـتجـاوب.. عند اللحظة المـعـينة تصلبت.. سـقطت إرادتهـا كأنهـا لا تطاوعـها فى بئـر بلا قـرار فلم تسمع لهـا أى صدى.. انسـخطت طفلة تنظر إليـه بحيرة. فـأزاحها عـنه إلى حد

الكراهية ثم كرر محاولته وتكرر الموقف الخائب بينهما وتحولت إلى كتلة ثلج رغم وهج الرغبة..

أيقنت أن الرغبة لا تكفى لارضائه ، ولكن لابد من الإرادة. لابد أن يتفقا سويا مهما اقنعت نفسها ومهما تلمست له الأسباب لأنه ملأها الإحساس عن أى وقت مضى بعدم صدقه.. لماذا؟ لا تدرى إنما فقط كانت تستند إلى شىء واحد فى أعماقها بأنه هو الخائف وهو الذى أحجم لأنه يعرفها ويقدرها ويعرف أن نفسه غير صادقة، فتموت اللحظة منه فى كل لحظة.. لا يقوى على جسارة الزيف كان من الممكن أن تتمادى معه كما حدث مع زوجها قبل زفافها إليه.. كانت قد زفت نفسها إليه وهى تتردد لترتب أشياءها فى شقته ولكن معه كان هناك نوع من الصدق والأمان.. أما خالد فقد خرج من تجربة فيها مذاق المر، مهما كانت حضارية السطح تجربة من فقد هويته وعبق مصريته لسنين وهذا الانفكاك من قفص الأجنبية الذى يعيشه بكل أفاقه لا يريد من أحد أن يعكر صفوه بارتباط جديد..

تذكر وهى تصر أن تكون بين ذراعيه رغم جزعها من الخطيئة، فكانت كأنها طفلة هناك من يضربها بيديه فتتجه إليه أكثر تحتمى به.. فقدت التميز.. تتلمس ركبتيه وتقبض على ملابسه فما كان منه إلا أن أبعدها ثم أبعدها.. تحاول أن تصنع الحب صناعة.. تستعيد خبراتها.. تستحضر مواقف سابقة لها أيام زواجها.. تستحضر مشاهد من أفلام رأتها إلا أنه لم يبق أمامها كواقع تعيشه إلا إحساسها بفشلها الأكيد.

وتنبهت من هذه السرحة الطويلة على من يقول لها :

«يا أستاذة مها يا أستاذة هل تأمرين بشيء آخر» فالتفتت كالملسوعة فى لمح البرق واستيقنت أنه أحد مساعديها وفوجئت بالبهو الذى به المعرض يكاد يكون خاليا.. رحل أغلب الضيوف والمصور هو الآخر يريد أن يذهب إلى معمله فى الجريدة.. بجوار صورة أكتوبر كان «خالد» يقف مع صاحب المعرض ما أن رآها انتهت من شكر المصور إلا واقترب منها يعرض عليها أن يوصلها فعربتها معروفة بينهم بأنها دوما «عطلانة» ، وفهمت من كلامه أنه ينوى أن يكمل الاحتفال بصديقه فى بيته وسار معها خطوات.. خطوات إلى أن خرجا يبحثان عن موضع عربتها.. شهقة هواء سحبتها بهدوء أحستها «تسند القلب» ولما جلست أمام عجلة القيادة كان «خالد» يستند بيديه على شباك العربة من ناحيتها وهو يعتذر لها عن ضرورة ذهابه إلى صديقه.. فى هذه اللحظة لمحت يديه وبذلت جهدا كبيرا حتى لا تخفض من رأسها وتلثم كفيه.. حتى تندت جبهتها فسحبت ورقة من أمامها تجفف وجهها فقال لها من فوره : «الجو بارد يا مها.. هل أنت مريضة» وأدارت العربة وهى تبتعد عن مكانه ولسان حالها يقول : «مريضة.. وأى مرض وكله إلى انطفاء إلا الشعور بك.. وآه من عجز الإنسان على أن يبوح.. آه لو أنجح فى أن أقول له ما بى وكيف لا أستطيع رغم ما أنا فيه من أحاسيس!».



الفصل الأول

أدارت أحد الأشرطة فـور ركوبها عربتهـا.. وبلا تفكير وجدت نفسها تأخذ نفس طريقها اليومى من طريق «صلاح سالم» لتصل إلى بيتها فى المعادى.. تتعجل أن تخلو لنفسها.. تحتضن أفكارها ولحظات خـجلهـا وهدوء الطـريق ترتاح إليـه ومـازالت خـلاياها تسرب إليهـا على مهل عبق «خالد»، وكـأنها موصولة فى وقفـتها بجواره لم يتركهـا بعد ! عربتها صغيرة وقـريبةمن الأرض فبدت كأنها تدخل صدفتها، لتحتمى فى قلبها من كل ما عبرته فى يومها وهى نفسـها كلحم الصدفة هلامـية بكل كيان مـحدد من ضراوة الأحاسيس التى تفتتها..

حاولت أن تلملم نفسها ولكـن صوت المطر الذى باغتها يرسم اشكالا على زجاج العـربة تخيفهـا.. قطرات المطر كبيرة وبطـيئة تشكل تكوينات بأحجام مختلفة استحوذت على عقلها ولم يكن لها إلا تفسـير واحد أنهن نساء ينتـحبن.. هذه الأشكال بعينهـا كانت تراها فى فنجان قهوتها الصباحية حين تقلبه وتحاول أن تستنطق الصور والأشكال.. رأت فى الأشكال أمها جالسة.. أغمضت عينيها أكثر من مـرة رهبة، فما كان ينبغى أن تسلك هذا الطريق وحدها فى تلك الساعة المتأخرة تمنت لو تستطيع أن تعود ولكن لا سبيل إلى التراجع سيكلفها وقتا أطول.

حرارة أنفاسها غبشت الرؤية ففتحت مقدارا صغيرا من النافذة عن شمـالها ولمـا دخل الهواء رغم برودته أحـست بأنه يحـتضن كيانها هواء مغسول.. له رائحة بداية الخليقة ففتحت فمها تريد أن

تتذوقه.. فهى تأنس إلى هذا الطريق تلمح فيه مكان مقبرة والديها وتقرأ لهما الفاتحة كل يوم ذهابا وإيابا «آه يا أمى بعد كل هذا العمر أفتقدك بشوق يتجدد. وحدقت فى الزجاج أمامها فوجدت شكل أمها منطبعا ولكنها تجلس القرفصاء ووجهها إلى الأرض تنتحب كأنها لم تمت.. كأنها معها خطوة خطوة.. هل الأمهات لا تموت؟ لا ينزلن تحت الأرض؟ خرجت منها الآه عالية وسمعتها بأذنيها فانشق لها قلبها شوقا بكل قوتها كانت تضع قدمها على السرعة.. الموسيقى وقطرات المطر وتوترها عمى بصيرتها فضغطت أكثر رغم قدم عربتها واثقة بأنها تحفظ الطريق.. والطريق نفسه يغريها بانفتاحه أمامها.. انفتاح بلا آخر كالسراب.. كلما تقدمت وجدت الآخر، وفجأة انحرفت العربة بقوة وقبل أن تتملكها الدهشة استقرت تماما وإن بقيت دائرة..

نظرت إلى ساعتها وعرفت أن الوقت جرى إلى ما بعد منتصف الليل.. لحظات مرت بها دون أن تعرف حقيقة ما حدث.. فى نزولها من العربة استحضرت وجه الأسطى «زينهم» كأنها تسأله وعلى أنوارها الكاشفة عرفت أن إحدى العجلات خرت فارغة من الهواء.. إنها تعرف كيف تغير الإطار ولكن لابد من مساعدة أحد.. تلفتت بيأس.. كان الخرس مخيما.. تعرف أن لديها منفاخا ولكن لابد من أحد يرفع لها العربة قليلا حتى تزيحه.. فكرت أن تتركها ولكن من أين لها الآن بعربة أجرة.. كان المطر قد توقف كأنه يفسح لها الزمن لترهف السمع وفعلا حركة ما ناوشت أذنيها فالتفتت بسرعة لتجد ثلاثة أطفال لا تزيد سن الواحد منهم على عشر سنين.. كالقطط يدورون حول العربة ينزلقون تحتها ويخرجون من الجهة الأخرى.. لاحظت أنهم يرتدون الجلابية

«على اللحم» يتحسسون العربة «ياست الكاوتش نايم» قبل أن ترد عليهم كانوا يقترحون وفى الوقت نفسه يبدأون فى التنفيذ بإزاحة العربة إلى يمين الطريق خارج الأسفلت فكان الظلام كاملا.. مشت خطوات خلفهم فاقترح أحدهم مرة أخرى أن تدخل العربة فالجو شديد البرودة.. داهمها يقين بأن السماء ستدمع من جديد وربما لمدة طويلة.. نظرت إلى أعوادهم الغضة لا شىء يلبسونه فى أقدامهم والأرض خارج الأسفلت لزجة.. طمأنت نفسها إلى أنهم متمرسون على الخوض فى الطين! دخلت العربة ووضعت يدها على المقوض تحاول أن تساعدهم ويكفيهم ثقلها.. اقترح أحدهم وهو يشير لها أن تطفىء أنوار العربة خوفا على البطارية وما أن عملت هذا إلا ودفعوا العربة إلى الخلف بقوة.. لم تر شيئا قط شعورها بأنها تسلك منزلا فوضعت يدها على النور مرة أخرى كانت العربة مازالت تعود إلى الوراء بشدة وضعت قدمها على الكابح لتوقف العربية ثم شدت أيضا كابح اليد ونزلت فورا.. لم تجد الأطفال.. تلفتت عليهم.. كانوا يهبطون منزلا تبينتهم من جلابيبهم البيضاء ثم اختفوا.

قررت أن تغلق العربة وتطلع إلى الطريق العام.. ما أن همت إلا وانغرس حذاؤها بكعبه العالى فبقيت مكانها لبرهة تحتضن حقيبتها إلى صدرها.. وفجأة برز لها ثلاثة رجال.. أجفلت فزعة وإن ظنت على الفور أن الأطفال أرسلوهم لنجدتها.. لم تلتقط أنفاسها بعد إلا وجذبها أحدهم فكادت تقع وقبضت على ذراعه.. هالها أنه احتضنها بقوة فصحا رد فعلها وانتزعت نفسها منه إلا أن حذاءها لم يساعدها على أن تبتعد عنه كثيرا وشدها بقسوة مرة أخرى من ذراعها ومشى بها خطوات ثم إزاحها بقوة

فاصطدم بطن ساقها بصخرة من خلفها فوقعت جالسة لا إراديا.. طلب منها أن تخلع حليها وأشار إلى رقبتها دون أن ينطق فبدأت تخلع كل شيء «خد كل اللى إنت عايزه» ناولته ويدها ترتعش بقوة لم تتمكن من السيطرة عليها حتى ساعة يدها أخذها ووضعها فى جيب بنطلونه..

كانت حقيبتها معلقة على كتفها بقفزة واحدة انتزعها آخر وقد انغرست أصابعه فى لحم كتفها وتأكدت أنه قد مزق «كم» الثوب وشعرت بالهواء لاذعا ينفذ من مكان أصابعه وظنت أنها انتهت منهم إلا أن الأول مد يده إلى شعرها فأحنت رأسها تنظر إلى حذائها بدون سبب ، رغم أنها لا تتبينه فى العتمة ! فتطاولت كفه تكوم شعرها حزمة فى يده وشدها من فوق الصخرة فانكفأت على ركبتيها.. كابوس أم حقيقة؟ ولم تعرف ما الذى يحدث بعد هذا؟ شعرت بالرمال لزجة تحتها والشاب بثقله يطبق عليها.. شاب غريب فى ليل لا نهائى كهذا.. استجمعت نفسها والتوت قاعدة.. هوى على وجهها.. لحظة استكانة توقفت فيها أنفاسها.. الأكيد أنها تريد أن تقاوم ولكنها لا تقوى بل إنها تستميت ولكنها يائسة.. حاولت أن تقضمه بأسنانها فكان يفتح فمه أوسع منها ليحتوى شفتيها بأسنانها.. المسائل جرت بسرعة.. لعابه ملأ فمها.. ولهاثه يحرق أذنيها.. أتصرخ ومن سيسمعها فى هذا المكان.. وكيف تزيحه وعضلاته تنغصها فى كل جزء من جسدها.. ضوء عربة على الطريق وصلها على رقدتها فتبينت وجهه.. كان أشقر الشعر أبيض البشرة فانغرست أكثر فى الأرض هلوعة تقبض على الطين، كأنها تريد أن تكيل منه وتغطى نفسها.. ممتلئة باحساس واحد أنها تريد أن تنتهى منه أو ينتهى هو منها..

عقلهـا يدور متـسائلة: «تراه أجنبى يحـمل مرض الايدز» اخـتزل كـيانهـا فى رغـبة واحـدة أن تتـرك هذا المكان بأى ثمن.. قـامت تحـاول الوقـوف وقـبل أن تصلب طولهـا كـان آخـر يشـدها من خصرها وفى نفس المكان اسقطهـا بدفعة قوية على الأرض، وبدأ يخلع مـلابسه دون تردد بل فى اصـرار.. وفى لمح البصـر انكفأ عليـهـا رأسـهـا مـغـروس فى الأرض.. ذاقت طعم الـطين وتعلق بصدغـيها وداير وجهـها أصابعه مـزقت صدر ثوبها.. بذراعيـها كانت تدفعه من كـتفيه إلا أنه حبس جسدها بقوة بين ركـبتيه ولا تدرى كيف وضع ذراعيـها تحت ظهرها فأصبحت عـاجزة تماما.. لم يكن أمامـها إلا هلوسة الصـراخ فوضع يده على فمهـا.. كادت تختنق وفتحت أنفها عن آخره تريد هواء.. تريد أن تصرخ وإن مرّ بخاطرهـا جسامـة الثمن الذى سـتدفعـه إذا ما اسـتـنجدت.. وهو كالآلة تمـاما فوقها.. مـرة أخرى تبينت وجهـه على ضوء آت من الطريق وجـهه أسـود وشعـره مـجعـد.. «تراه افريقى ومـريض بالإيدز الذى لا علاج له» اشـتهت مرة أخـرى أن تمر لحظات هذا الزمن بأى شكل لينتـهى منها.. ولمـا انتهى كـان الثالث يبـدأ إنما كـانت قد دخلت فى بداية غـيـبوبة.. وجـ... وجـ... وجـهه شـديد السـمـرة.. كل ما اسـتطاعـتـه أن تمنت قـبل أن تروح فى عـمق غيبوبتـها أن يكون هذا الثالث «نوبيا» فهؤلاء بالتأكـيد لا يعرفون مرض الإيدز.

لم تع متى انتـهى.. أو متى اختفى ثلاثتهـم.. كان كل شىء قد مر كالحلم تماما.. كالكابوس والأكيد أن الخيط الأول للفجر قد بدأ حثيثا وهى مسطوحة فى رقدتها.. هل تصدق أنها هى؟ هل تصدق أن هذا حدث لها؟ سمعت صوت نفسـها فعرفت أنها هى.. سمعت

أنين روحها فعرفت أنها هى.. أمسكت يدها بعض جسدها فعرفت أنها هى.. تلفتت برأسها فرأت عربتها ليست بعيدة عنها فشدت جزعها زاحفة إلى أن اسندت ظهرها على أحد إطاراتها لا تعرف أين الجزء الأسفل من ثوبها.. لمحته ملقى على مقربة.. بذلت جهدا أكثر مما تحتمل أى امرأة لتصل إليه، ولما لمسته كانت تخطفه ثم تلبسه من رجليها.. لم تقو على إتيان أى حركة بعد ذلك وعادت لترتمى بظهرها إلى إطار العجلة الفارغ.. واعية ولا واعية ترى جسدها كأنه ليس لها.. كالذبيحة رأسها مفصولة عن جسدها ولا تحملق بعينيها إلا فيه.. ماذا تفعل؟ وبماذا يفيد فعل أى شيء الآن؟ تهالكت مكانها تنطق بكلمات لا تعيها وتنظر إلى نفسها.. كان جسدها غارقا فى بلله ولم تكن تشعر ببرودة.. رفعت رأسها فلمحت الغمام كتلا بيضاء كأنها دموع جمدت فى عيون السماء فأرخت جفنيها.. أرادت أن تعرف الوقت فلم تجد ساعتها فى ذراعها.. لقد ظنوا أنهم أخذوا منها كنزا.. من أين لها كموظفة بالكنوز؟!

إن كل ما أخذوه منها زائفا مثل لحظاتهم معها، يلح عليها سؤال «هل لا يوجد أسلوب وقائى لمرض الإيدز» استجمعت نفسها وانصلبت واقفة تتلفت على بقية أجزاء ملابسها.. على مقربة كان حذاؤها تحاول أن تدخل فيه قدميها تنوى أن تطلع بأى شكل إلى الطريق العام تستجير بأى عربة تأخذها إلى بيتها وكأن ثقلا شدها من مؤخرتها ، فهوت ساقطة مكانها تحشر ما أمكنها من طرف ثوبها تحتها : «هل يمكن أن أعيش إلى اليوم الذى أنسى فيه ما حدث؟» سؤال انبثق رغم عتمة اللحظة.. هل يفلح الزمن أن يمحو من أعماقها سواد ما مر بها؟ يالهول

ما تعيشه امرأة محسوبة على الفئة الواعية فى مصر.. متذوقة للثقافة! من ساعات فقط كانت تعيش أسمى معانى الفن.. والآن جثة تنبض بكل معانى كلمة واحدة لا بديل لها هى العار وتتمسك بتلابيب أمنية لم تخلق بعد ! هل يمكن أن تعيش إلى اليوم الذى ينمحى من كيانها ما حدث فى هذه الليلة؟ وكمن شب بها حريق فكيف تنجو منه؟ الحريق من داخلها والصقيع حريق أيضا من حواليها فارتجت على جلستها.. كيف تحمى نفسها من كليهما ؟ الاثنان يمزقانها فتلوت أمعاؤها.. وهى تنحنى على نفسها وجعا، اصطدمت عيناها بمشهد المقابر على البعد.. إنها مقابر اليهود.. تعرف هذا المكان لابد أنها قريبة من حىّ البساتين.. مقابر من الرخام الأبيض، عليها بقايا تماثيل لحمام أبيض وتماثيل لملائكة.. فحيح يسمم سمعها وتسمعه بوضوح فتلفتت وجلة تبحث عن الصوت ارتجت أكثر وهى تسمع صوت ضحكة عن يمينها وعن شمالها، كل الفضاء من حولها صوت ضحكات تطاردها فبقيت تتلفت كالبلهاء حواليها لا تستقر رأسها لثانية واحدة إلى أن عرفت أن الصوت آت من هناك ! إن من فى القبور يضحكون عليها.. يسخرون منها وفى هذا الوقت !! «رباه إذا الأموات ضحكت فما بالى بالأحياء من زملائى لو عرفوا ما حدث لى فأى نوع من الضحكات سوف تقتلنى» وعادت النار تمسك بها فقد بدأت تقرر لنفسها ويالهول ما عرفته.. قررت أنها لم تقاوم.. لم تقاوم بالقدر الكافى كان يمكنها أن تقتل الأول الأشقر.. لماذا لم تحمل الصخرة وتهوى بها عليه ؟ لماذا لم تخنقه بوشاحها الذى تجفف به دمعها الآن؟

لقد بحثت عن إرادتها فلم تجدها وسألت نفسها بعد أن انتهى

آخر واحد منها رغم الإعياء والموات «لماذا لم تتملكنى رغبة مقاومة الاغتصاب وتركت بعضا من نفسى يُحس دفء الجسد المغروس فىّ، وأحسب فقط متى ينتهى وأحسب مرض الإيدز» هل عنصر المباغتة جعلها تختل وكأنما يتم تبادل الشبان الثلاثة عليها كأنها فى لحظة ذهول وكأنها تشاهد حلما وكأنها ليست هى التى تغتصب وإنما هى مجرد شاهد على حادث أو شاهدة على العصر كما كانت تكتب وتقول كان كل همها لأن احدهم أسود خوفها أن يكون افريقيا من بلاد الإيدز وكم تمنت أن يكون نوبيا مصريا فنسبه احتمال حمله للمرض معدومة.

والشاب الأشقر هل هو غريب عن شرقنا؟ وما الذى جمعهم؟ إنها لم تستطع أن تدرك جنسيتهم لأنه لم ينطق أحدهم بكلمة، إنما كانت اشارات وهمهمات وقبل بدائية و... هل لو كانت فكرت وبذلت مجهودا وقالت لهم : «أنا مها موسى الصحفية.. أنا فى عمر أم لكم.. أنا من دافعت عنكم.. عن قضايا الشباب وهموم الشباب» كان يمكن أن تعمل عقلها وتقول لهم : «ألم يقرأ أحدكم لى موضوعا؟ ألم تتعلموا من نقدى شيئا؟ ألم أفلح مرة واحدة طوال خمسة عشر عاما أن أشعركم بقيم سامية فى الحياة» انشطر احساسها واستعابها الروح منها معذبة تعانى حريق واقعة الاغتصاب والعقل منها يقيس ويحكم ويتساءل.. كان أكبر من احتمالها أن تستعقل أن يفعل بها مصريون من وطنها ما فعلوا!!! كأنها كانت فى أتون حرب.. كلمة الحرب داخلها تفتت عقلها داخل رأسها وتتناوب صور بقع الماء أمام عينيها على زجاج العربة وتسمع ولولة النساء فى أذنيها وصرخت «يا عالم.. يا دنيا هذا العالم الحرب خضناها وكتبت وقتها عن تلك الحالة

الخاصة جدا والتى عشناها بطول المحيط وعرض الخليج توحدنا فيها على أن الحياة صراع من أجل أن يكون الإنسان إنسانا.. فماذا بعد هذا يا الله.. هل خسرنا نبض اكتوبر ودسنا ذاكرتنا بأقدامنا الموحلة وأصبحنا بلا نبض بلا حياة !! ماذا بعد هذا يا عالم.. لماذا نسينا ؟ لماذا ابتلعنا ذاكرتنا.. وهل كان يجب مثلا أن يخرج علينا رغيف العيش مكتوبا عليه تذكروا حرب أكتوبر.. تذكروا قيمكم.. أم تخرج لنا المصانع ملابسنا الداخلية مكتوبا عليها أيضا تذكروا أخلاقيات أكتوبر !

مات أخى الوحيد فلعقنا جراحنا بعد أن عرفنا طعم الدم السيال والدم المتجلط وحمدنا الله.. فقد كان يمكن أن يموت فى معركة رخيصة ولكنه مات وهو يحفر اسم الوطن.. أبعد هذا الاعتزاز اغتصب من أولاد بلدى بل لعلهم زملاء لأخى.

عوى داخلها أنين فخرجت صرختها تطعن سماء هذا الفجر تتخطى كتل الغمام الرمادية والسوداء وهى تقرر لنفسها بأن الموت حالة تفضيل من الله.. ويغلبها العواء فتصرخ بقوتها مرة أخرى «لماذا لم تخترنى يا الله.. لماذا.. لماذا.. ومتى ترحم؟» وخرت على ركبتيها تضع صدغها على الأرض الموحلة قريبة من إطار العربة الفارغ لا تهدأ ولا تطيق نفسها قاعدة أو واقفة أو ساجدة وأخيرا هوت على الأرض مكانها خلعت حذاءها وبدأت تضرب نفسها ولا كلمة على شفتيها إلا عبارة «كنت مت بشرف.. كنت مت بموقف» وظلت على هذه الحالة دقائق تأكل بعضها البعض إلى أن همدت فسقط ذراعاها بجوارها ومازالت بكفيها تقبض على حذائها فى حالة من اليأس لا حل لها.. الذاكرة داخلها فارغة وأنفاسها هامدة يقطعها بين الحين والآخر نشيج آت من

عمق روحها.. وبلا مقدمات عبر وجه «خالد» مجسما فى مخيلتها فأشاحت بيدها وأغمضت عينيها وتركت رأسها تسقط ناحية كتفها الأيسر مكان ما كان يهبط الأطفال «أين أنت يا خالد.. تراك تتصور ما حدث لى.. وأنت أنت رغم احساسى بك لم تفلح أن تهزمنى لحظة واحدة.. أن تجعلنى أنسى أو أتناسى رغم أننى أخطو بتأكيد نحو سن ما بعد اليأس ومع هذا كانت لى الجرأة على الرفض، وعلى الكبرياء بدلا من التسليم وعيش لحظات قد لا تأتى مرة أخرى» وكأن هذا التفكير لم يزدها إلا يقينا، بأن الخطأ لا يأتى إلا بإرادة ولو كانت مستترة بين جانبين.. كأنه اتفاق غير منطوق بين الضحية العاشقة وبين الجانى الذى يتسلى.. إن هذا الاتفاق لم يتم يوما بينها وبين «خالد» فلم يحدث شيء وصرخت وهى تنطق بأعلى ما فى جعيرتها : «إذن أنا فعلا لم أقاوم بالدرجة الكافية وبصدق.. بل يا ويلى تركت بعضا من نفسى يحس الجسد المغروس فيه.. كان أول هدفهم السرقة ولكن خوفى وخنوعى وعدم محاولتى إقامة أى حوارمعهم جعلهم يطمعون فى اغتصابى.. كأن بين شهوة دمائهم الشرسة ودمائى حوار لين فاستسلمت لهم وتجرؤوا علىّ».

وبقيت هكذا.. ولما وعت إلى نفسها هذه المرة لم تفاجأ ولم تتساءل إن كان حلما أو واقعا.. أفاقت وهى تعرف أنها مغروسة فى قلب طين مكانها وفوق هذا تسخر منها المقابر على مرمى البصر أو لعلها تشمت بها.. وما زالت السحب متحجرة على أماكنها.. قفز إلى ذهنها أن تدخل العربة تدير الراديو لتعرف الوقت.. حركت المؤشر فالتقطت إحدى المحطات العالمية وسمعت خبر حفل الأمس.. لا إراديا ضحكت بمرارة وبقيت مكانها

وما زالت الأخـبار تتوالى ووجدت نفـسها فجـأة تنعزل عن بؤرة الحدث الرهيب - اغتـصابها - شعورها بأنها بعـيدة من عالم آخر ووحيدة فـعلا يتسرب إلـى وعيها أكثـر من حقيقـة وهى مازالت تحس بأنها مفـصولة عن كوننا من مكان آخر.. عقلها يسـتحضر صور الأمس.. الباقية فى المـحفل كأنهم تماثيل من تراب أبيض.. المثقفون فى بلدهم.. صك سمـعها صوت أحدهم يقول: «ابعث لها ورقة الطلاق حتى تترك الشقة فورا».

لحظتها لم تفكر كيف تخرج هذه العبارة من هذا الشاعر الفحل والأدهى أن الآخر صاحب المشكلة وهو شاعر أيضا كان يوافقه.. يعيش المثقفون كأن كل واحد منهم فى جزيرة منفصلة عن الآخر وعلى أحـسن تقـدير هم شلل.. منهـم من يتـبـعـون الـسلطة ويخدمونهـا، والآخرون - فرق أخرى - يحاربون بعـضهم البعض بهدوء ويتجاهلون انتاج بعضـهم البعض.. يحاربون بسلاح أقوى من الأسلحة الكيماوية وهو سلاح الصمت.. إنهم جميعا يقفون فى وضح النهـار ولكنهم ولوا ظهورهم للشـمس فلم يروا إلا ظلالهم والظل دائما أطول مَنْ حقيقـته فسقطوا جميعا فى عـملية تنافسية على الظل.. من منهم سيـحصد جـوائز هذا العام العالميـة والعام القـادم.؟ من منهم سـيـأخـذ «نوبل» وأيهـما الامـتـداد «لنجـيب محفوظ»؟ وكثيرا ما تساءلت «مها» هل الجائزة بقيمتها المادية أم المـعنوية. ودوما كـانت الكفـة المادية هى الرابـحة فـالمثـقفـون يسعـون بطريقتـهم الحثيـثة ليعـيشوا حـياة أسطورية وكـأن ما يعـشش داخل عـقـولهم حكايات «ألف ليـلة وليلة» فـقط سُم هذا الكتاب تراثا يتعلقون به وصار منتهى حلمهم فى الرفاهية والحب والخـوارق ربما من شـدة إحـساسـهم بالقـبح المـحيط حـولهم،

فـالقـذارة والتلوث همـا المحـيط فـسـقطوا فى لعـبـة البنكنوت وأصبـحوا عـلى استـعداد لشـراء أى قيـمة توصلهم إلى هدفـهم فيـصنعون الاحتـفالات والمهـرجانات والمناسبـات أى يصنعون شيـئا مـاديا ملموسا له ضـجيج يبـقيهم فى أمـاكنهم ولكن دون فلسفة اللهم إلا أن يجـعلوا التليفزيون والراديو يلهث من ورائهم.. صـارت الأعيـاد والاحتفالات أكثر من أى امكانيـات مادية تستطيع مجرد مـتابعتهـم.. لا فرق بين فريق وآخر بل إن منهم مَنْ ينـتقد ويعيب على الانـماط الاستـهلاكيـة التى أدخلها التليـفزيون وذلك النمـوذج الأمـريكى الذى لا يـرضـون عنه ويسـمـونه التـسـمم الإعـلامى.. يقـيمـون الندوات ويقـعـدونهـا ويتكلم أئمـة الرفض للنمـوذج المقـدم هم أنفسـهم مَنْ يعـيشـون هذه الحيـاة يرفلون وأسرهم فى نـوع من الرفاهية مـبالغ فـيه مهـما كـان يساريا أو ليبراليا تراهم فى المحافل لا يدخنون إلا السيجار ولا يلبسون إلا الحريـر والأسرة بأكمـلها تنتـقل أكثر مـن مرة فى العـام الواحد للترويح والتغيير فى بلاد أوربا والشرق الأقصى..

هؤلاء من هللوا للثـورة وهللت بهم الثـورة يتحـدثون الآن عن ثورة ثقافـية عربيـة ينقلونها إلينا كـأننا تلاميذ نـتلقى درسا فى التاريخ.. يتشبـهون بالثورة الفرنسية ولكن كان للثـورة الفرنسية هدف هو الوصول إلى الحرية والمسـاواة والإخاء أما هم فما هى أهدافهم من ثورة ثقافية ؟ وما هى الأحلام التى يريدون أن نسعى لتحقيقها.. وتسـاءلت «ما هذا الذى يتساقط فى عقلى.. مالى أنبش فى خـرائب الذاكـرة» كـيف حـقا تـصول وتجـول فى الثـقـافـة والمثقفين فى هذا الوقت بالذات كأنهـا فى أحسن حالاتها النفسية والجسدية كيف تترك جانبا بـؤرة الحدث الجوهرى ـ اغتصابها ـ

وتسبح قاصدة الأمواج والدوامات لتـغرق نفسها بها.. وهل تلقى واقعة الاغتـصاب يختلف بين امرأة شابة وأخرى لـها عمرها.. إن عقلها هو الذى يتكلم كأنها تستنجد به.. كأنه محام يدافع عنها بل يدافع عن مَنْ اعتـدوا عليها.. تحس بأن شيـئا ما ينفجر فـى قلبها دفقـات الدم مع نبضـها مـتتـالية وسـريعة فـشعرت بالاخـتناق والضغط بعنف حـتى بلغ مكمن الروح منها.. تكاد تلفظ أنفاسـها ورغم ذلك بقى العقل منهـا وكأنه يحمل تراث البشـرية كلها وفى هذه اللحظة بالذات ، وتعى أنه فى زمن مـضى أيام «محـمد على» كـان لنا حلم إقامـة الدولة القـوية عن طريق ثورة فى التـعليم ثم حلمنا بالتحـديث مع الخديوى اسماعـيل، وبنينا أوبرا حتى لا نقل عن أوربا.. كان الخديوى محبا «لأوجينى» فعبد لها طرق القاهرة.. ثم جاءت المطالبة بالدستور والجلاء وحين يكون المطلب معجونا بروح الشعب المصرى نفسه وليس الخليط من الأتراك أو الأجانب تلمس فـورا تغلغل فكرة الدين والاعـتـماد عليـه قـبل كل شىء.. الإيمان العميق فى الشعب المصرى بالذات بمثابة الشجرة العتيقة المعطاءة..

إنه إحساس يأتى من الأعماق الضاربة فى أقدم حضارة وليس لقافلـة العلم وحدها أن تبلغ هذا الإيمـان مطلقا.. عـرابى وزملاؤه كانوا يصلون جـماعة.. صلاة الحـاجة وصلاة التسـابيح. ضحك عليـهم التاريخ بعـد ذلك وانتقـدهم.. ولكن يظل المصـرى لابد أن يستوفـى الجانب الدينى من أغواره ليفكر بعـد ذلك فى أى جانب دنيوى آخر. إلى أن وصلـنا إلى حلم الثورة المجيـدة بإتمام جلاء الاستعمار الذى تجمعنا من أجل تحقيقه.. فهل نحيا مرحلة الزعيم «جمال عبدالناصر» وكل ما نعـيشه ما هو إلا ردود أفعال لما كان

فى عصره ؟ لأنه لم يعد هناك هدف عظيم نعيش من أجله. لم يعد هناك حلم جماعى نحلم به. وتسأل نفسها: «كيف تأتى الصحوة الآن؟ والتى يقول فيها المثقفون سنموت جوعا ولا نريد المعونة الأمريكية».. يقول العرب : إننا شعب خانع «وهل هناك خنوع أكثر من استسلامى ولماذا كنت أنظر إلى حذائى فى صمت رغم العتمة!! ولماذا انخرست لثوان وهو يهوى على صدغى».

جفت الدموع من عينيها.. ها هى امرأة محسوبة على الطبقة المستنيرة مرمية فى هذا المكان تعى أنه إنتهى الأمر بالمثقفين ومن يتبعهم ولا يزيدون على المائة والخمسين هم حضور كل محفل أيا كان مكانه يسمون أنفسهم رموز الثقافة.. الثقافة لمَنْ.. هل نزلوا إلى الكفور والنجوم يشرحون للبسطاء كيف يفهمون الفن.. ولماذا هو ضرورى للسمو بالإنسان من حيث كونه إنسانا.. لماذا لم يقضوا الأمسيات فى الحوارى والأزقة وجه القاهرة الحقيقى يعلمون الناس !؟ أو حتى ليتهم يفكون أميتهم الغالية.. والأدهى من ذلك أنه ليس هناك من يحاسبهم أو من يسألهم كيف يجمع الواحد فيهم بين رئاسة مجلس إدارة سبع مؤسسات فى وقت واحد كأن يشغل سبع وظائف وغيره ينتظر فى بيته بلا عمل.. وكيف تدار مؤسسات ليل نهار لصالح فرد واحد يسافر.. ويشارك.. ويتعاقد.. وتمتلىء جيوبه عمولات أصبحت شرعية من كثرة ما أصبحت واقعا متداولا.. يتركون اللوائح الوضعية لعديد من المؤسسات الإعلامية ليقبض من يتربعون على قمتها نسبة يسمونها مشروعة طبقا لتلك اللوائح التى وضعوها بأنفسهم كيف يقبض رئيس مؤسسة لأنه نشر مسرحية! أو ديوان شعر لأحد الشبان المبدعين! وكيف يقبض

مسـئول الإعـلان فى أى مؤسسـة نسبـة ثابتة من المـدفوع فى الإعلان والذى لم يجلبه بجهده..

إن هذا الواقع خلق فـروقا مـادية شاسـعة بين الناس.. جـعل هناك من لهم الحق فى الحياة ومن ليس لهم إلا الرضا على أحسن تقدير.. وسقط المثـقفون حتى أذانهم فى مفهوم النجـومية ولماذا يتربع «عـادل إمام» على قمة الرفـاهية فى حياته الخـاصة «فكلنا عادل إمام.. كلنا عـادل إمام» برع المثقفـون فى اصطناع الرفاهية من حولهم هروبا من القبح المـحيط فى كل مكان.. فأكوام الزبالة والتلوث الأخـلاقى ولو كانوا شـركاء فيـه يهربون منه بتـصنيع الجمال، وممارسته حـتى أنه إذا مرض أحدهم لا ينزل المستشفى إنما فى الفنادق ذى الخـمسة نجوم.. يرقد هناك مـحاطا بالزهور يزار بمن يرتادون الفنادق وليس المـصحـات.. يقولون لأنفـسهم فيما يشبه الوشوشـة: «نحن نعيش زمن طهارة اليد» إنما لا مانع من أن يصل المسئول مبالغ من أصدقائه العرب على سبيل الهدية أو الهبـة !! ممـا جعل السـوق المصريـة تغرق بهذا الطـوفان من المجـلات والجرائد صاحبـة التمويل العـربى مسطحة المسـتوى الفكرى.. وبهذا يغتالون العقل المصرى بأن يسقوه ما هو أقل من حقيقة خط الحضارة التى يقف عندها. الحضارة التى قدمها للعالم منذ آلاف السنين.

ونوع ثالث يبـدع فى صـمت كـأنه يمـارس هواية سـرية فى أعمالهم تُحس عبق عملية الإبداع الحـقيقية، ولكنهم كالجذور تأبى الظهور فوق سطح الأرض.. مـهاجرون داخل أنفسـهم.. يعـيشون داخل اصداف ملقاة فى قاع بحر لا نعرفه ، يخافون الخروج حذر المـوت.. وعلى العمـوم لا أحد يـسأل عنهم إلا يوم أن يمـوتوا أو

ينتحروا وعلى شرط ألا يكون هناك مهرجان أو مؤتمر حتى يتفرغ الناس للسير فى جنازته إن أرادوا أو حتى كتابة خبر وفاته إذا كانت المساحة تسمح.. هؤلاء كثيرون ومهما ابتعدوا عن الأضواء وتركوا كل الساحات لغيرهم فلا تسمع كلمة نقد واحدة عما يبدعون ولا تقدير لهم إنما كل المردود من الآخرين هو الحياد على أحسن تقدير من التفاؤل ويكفيهم حظا أنهم لم يهاجموهم.

هل تأثير الحفل ومدى الكذب والزيف أثر على إرادتها.. يعذبها وتمتلىء نفسها بالاحباط حين تلمس فى كل حفل من هذه الحفلات، أن التنفيس الوحيد للناس من ضغط هذا الزيف بعينه هو إتهام الجميع بعبارة التخنث أو العنوسية أو الجنس الثالث.. لماذا لم تقاوم ؟ مجرد مقاومة. هل ذهبت واقعة اغتصابها بعقلها «أهى اغتصاب لعقلى كما اغتصبت عفتى» ؟ ورغم وجود هذه السلسلة المتضاربة من الخواطر والصور التى تقتحم رأسها إلا أنها كانت تزيدها أكثر بإرادتها فانكفأت بنفسها على نفسها حتى تقوست ضلوعها وتضامت على مكمن روحها فعرفت الكثير وراحت تسحب هذه المعرفة على مهل موضوعا بموضوع وواقعة بواقعة وعرفت أن المطروح الآن فى الساحة لعلاج الفقر والقبح والظلم الذى يشدنا إلى الوراء هو الحل الإسلامى مع تعدد الاختيارات، التطرف والوسط والدلع كما يجرى فى السودان وهذا ما تسميه أمريكا الخطر الأخضر الذى فيه كل درجات اللون..

الحل الإسلامى يرفعون عقيدتهم به ولا يقدمون له شرحا أو منهاجا نعرفه إنما يقولون فقط اتبعونا وسترون.. «يا عالم إن الله نفسه أنزل شرائعه فى كتاب أسماه القرآن، ومسلمو مصر

لا ينطقون ! فلا برنامج معد ولا رؤية مكتوبة فقط كلمة اتبعونا يهزون رءوسهم ليقولوا دائما: إن الإيمان ينبوع فى الروح ليس لقافلة الفكر أن تبلغها مطلقا»!

مالت برأسها على عجلة القيادة وأدارت مؤشر الراديو من جديد.. أخبار البوسنة والهرسك.. انصتت لبرهة ليس لتسمع الأخبار لذاتها ولكن كأنها تسمعها لتجد فيها العزاء وكانت تقرر لنفسها «إن مها موسى ليست الوحيدة على الكرة الأرضية التى تبيت مغتصبة، فهناك المرأة فى البوسنة والهرسك هى الأخرى».. ولم تكد تلتقط أنفاسها وتبتلع لعابها لثانية واحدة إلا وصوت داخلها يذكرها بحقيقة أن المرأة هناك تموت فى معركة وأنت ما هى معركتك؟ هناك تغتصب كمرحلة تاريخية أما أنت فاغتصبت لخنوعك.. هناك فرق بين المرأة فى البوسنة وامرأة فى طريق «صلاح سالم». ودار عقلها سريعا يفتش عن الموضوعات وتتأكد أنها عرفت منذ أسابيع فقط أن صفقات سلاح كاملة كانت تصل مدينة الهرسك عن طريق وطنها العربى !! وحين اكتشف الناس معها هذه الحقيقة ماذا فعل مثقفو السلطة.. رموز الثقافة ؟ فكروا فى جذب انتباه الناس إلى موضوع آخر وكان لابد من استنطاق صوت قبطى شديد الضجيج على الساحة المصرية يعبر عن أحلام وأحقاد الطائفة يصطنعون القضايا اصطناعا، ويحولون كل شىء إلى عراك طائفى يحدوه المارشات الجنائزية رغم حقيقة أنه إذا كان للروح توأم فإن توأم روح كل مصرى روح أخرى قبطية وإذا كان هناك معاناة للطائفة فهى آيلة لزوال مع التحضر الذى سيطول الجميع ، لأن المسلم المستنير يعانى هو الآخر.. يطالبون بالحل العلمانى وفيه اتفاق بين الشيوعية والرأسمالية

لأنه فى كل الأحوال يبعدهم عن السلطة الإسلامية التى تبدو دائما لا حول ولا قوة ولا فكر لها.. لماذا لم تقاوم بقوة الصدق والإيمان ما الذى دهاها ؟ هل لأنها كانت متزوجة أصلا وهى الآن أرملة منذ سنوات طوال.. لقد ظنت أن الموضوع انتهى وأنها فى أمان وسلم مع غرائزها ووضعها الاجتماعى ويا للمصيبة مع سنها أيضا وقيمها. هل هو عنصر المباغتة الذى جعلها تختل ؟

اكتمل طلوع الفجر عليها.. نزلت من مكانها فى العربة وارتعدت قبل أن تستقيم فى وقفتها لدرجة أنها فكرت أن ترتد قاعدة داخل العربة تحتمى بها.. سمعت صوت أقدام قريبة منها وعلى بعد خطوات كانت فتاة تمسك عصا فى يدها تهش بها على غنمها.. الأغنام تكتلت ناحية مها.. الأغنام قريبة من فخذيها.. تتمسح بها.. دفء أصوافها وصلها واستراحت كأنها تمتصها وكأن الأغنام تتعاطف معها.. دقات قلبها خبطات تود أن تشكو بها إحساسها بالمهانة وبسهولة سقطت دموعها.. من داخلها كلام حبيس وفى أعماقها وحشة تعصف بها فلم تلتفت إلى الفتاة فكل ما تحسه اضمحلال تام لا تقوى معه على التواصل أو حتى الشكوى.. وأشاحت بوجهها عن الراعية والطريق واستدارت تدخل عمق الصحراء ومشت.. مشت تريد أن تقضى حاجة.. هناك أحاطت بها الأغنام تشكل حاجزا حجبها تماما كأن الحيوانات تفهم أو لعلها تميز !!

عادت ادراجها وابتعدت الأغنام تروح ناحية صاحبتها.. طلعت إلى الطريق العام أبعد خطوات من عربتها.. العربات تمرق فوق الأسفلت بصوت وحشى كأنها تهد الطريق.. تدوس بقوة المدرعات تذكر هذا الصوت تعرفه من رؤيتها للاستعراض

العسكرى زمان فى العيد السنوى لقيام الثورة وهمست لنفسها «كان عيدا حقيقيا وكنا ننتظره» لمحت نخلة وحيدة عن يمينها.. كيف لم تنتبه إليها ولها جسارة كل هذا البقاء وحيدة وفى هذا المكان ؟ خيل إليها أن فروعها أذرع تناديها لتحيطها فبكت من جديد.. راعية الغنم تقف قربها والأغنام تجتر الوقت بسكينة وعلى مهل.

العربات السوداء الفارهة تطوى الطريق.. لا تقف لأحد وهى نفسها لا يمكن أن تصاب بالعطل وإذا حدث هذا فلا يسرق أصحابها ولا يغتصبون فلهم وسائلهم الوقائية إن من يغتصبون هم الفقراء أو من يحاولون الخروج من دائرة الفقر أى الموظفون حين يمتلكون العربات التى ليس لها مقاومة ولا وسائل أمان وصفارات تخويف وانذار.. كما يرتدون الزينة المزيفة والمقلدة ومازالت العربات الفارهة تمرق من أمامها والأغلبية لديهم السائقون ليروا الطريق وصاحب العربة إما مشغول فى التليفون أو بجهاز الكمبيوتر يحسب أمواله وعلى أقل تقدير يقرأ جرائد الصباح «آه إن مَنْ تصنع هذه الأخبار تستجير بكم الآن.. أو لعلهم يقرأون العمود الذى كتبته بالأمس عن النحت.. أحد يتوقف ليرانى.. أين رحمتك يا ربى.. أين غفرانك».

وهى على حيرتها تشاور بيديها الاثنين انحرفت عربة فأجفلت راجعة تبتعد عن المكان.. كانت العربة «ميكروباص» أوقفها السائق بقوة أخافتها وأثار كمية من الرمال حجبت عنها الرؤية لثوان وقفز نازلا منها:

– بقى لك مدة يا ست هانم ؟

– لا من دقائق فقط.

لم يهتم أن يتـفحصـها كما كـانت تتوقع إنما دار حـول العربة وفتحهـا وأخرج منها الإطار «الاستبن» ثم اتجه إلى عـربته ليأخذ «المنفاخ» تملكها ضيق الدنيا حتى كادت تخرج روحها من بدنها.. فلم تكن تريد شيئـا إلا أن تتستر داخل العربة ليوصلهـا.. اقتربت منه وقبل أن تبـدأ فى سؤاله كان يجلس على عجلة القـيادة ويدير العربة.. دارت ولكن كل ما فيها كان يرتج ويرتعش ومع ذلك أصر على الاستـمرار فكانت العربة «تزعق» دون أن تتحـرك من مكانها شعرت بالوهن على وقفتها وبـرودة الجو نفذت إليها من أكثر من مكان فى ثوبهـا تتـمنى من قلبـهـا ألا تضطر لقـيادتهـا.. تلفـتت حواليها ولمحت النخلة تجلس تحتـها الراعية وتشير لها بأن تأتى لتجلس بجوارها.. شعور بالغثيـان يهاجمها والعربة مازالت دائرة إلا أن السـائق لم يـنجح فى أن يخـرج بهـا من المـنزل إلى بداية أسفلت الطريق ونادى عليها :

– يا ست العـجل غارز فى الوحـل والمكان منزل. والأكيـد أنه ليس عندى حبل و.. و....

اغرورقت عـيناها بالدموع وقد عـرفت فى هذه اللحظة بالذات طعم عبـور الفرحة فلا قـوة لها بأى حال من الأحوال على قـيادة العربة الآن. نزل رجـلان من المقعـد الأمامى كانا بجـوار السائق فصعـدت وهى تستجمع أقصى عافـيتها.. شعرت بأعلى فـخذيها يؤلمانهـا ولكنها صعـدت متمـاسكة ما أمكنهـا وجلست.. قبل أن تبتلع لعابها بنوع من الارتيـاح انتبهت إلى أن آخرين يجلسون فى الأماكن الخلفية.. استـدارت بنصف وجهها والقت عليهم بنوع من الاستـحياء بتـحية الصـباح.. لمحـته جالسـا فى سكينة «راهب» يقبض بيـده على مسـبحة سـوداء طويلة.. لا تدرى لماذا شـعرت

بأنه يعرف ما حدث لها وحين أرادت أن تتأكد أشاح بوجهه بهدوء شديد عنها فنقلت بصرها إلى السائق من جوارها كان ملتحيا.. لم تحاول أن تنظر إلى الاثنين الباقيين فقد كانا خلفها مباشرة واعتدلت فى جلستها.. الشعور بالغثيان يلازمها ورائحة فجة وعطنة تفوح منها.. سحبت الثوب حول جسدها والذى كان ممزقا فى أغلبه.. تشاغلت بلملمته حولها.. لم يلحظها الركاب بسبب شبورة الفجر.. التفتت فجأة تبحث عن حقيبتها فاصطدمت عيناها بعينىّ الراهب وإن أطال التحديق فيها وتذكرت أنهم أخذوا كل شىء.. لمحت ساعة العربة من أمامها وعرفت أن الوقت يقترب من السادسة.. العربة تسير والصور تتلاحق فى مخيلتها تهيأ لها أن كل وجه تلمحه هو لواحد ممن اغتصبوها.. إشارة مرور أوقفتهم عند مزلقان قطار، فتلاقت عيناها بوجه رجل استفحل المشيب فى رأسه.. جرعة حنان عابر وصلتها ذكرتها بشبابها عندما كانت تتلاقى عربتا المترو عند ميدان رمسيس أيام امتحانات آخر العام وتلمح هذا الحنان العابر من بعض الناس.. يعرفون أنهم طلبة يمتحنون فيبتسمون لها واختلجت على جلستها ثم همت لا إراديا «أخ تراه عرفنى» رباه إنه رئيسها فى الجريدة.. ما الذى أتى به فى هذه الساعة ؟ وكيف لم تنتبه من أول نظرة وتركت نفسها تحلم بالتعاطف ولو كان عابرا.. شعر السائق الملتحى جانبها بها فالتفت إليها يسألها :

– يا ست إنت من فين فى المعادى بالضبط ؟

بتلقائية كانت تقول له :

– جنب الدير فى ثكنات المعادى.

صوت آخر والأكيد أنه للراهب :

- وهل أتيت لزيارة الدير فى هذا الوقت المبكر ؟
بتلقائية أيضا كانت تقول :
- أنا كنت فى افتتاح معرض.
سمعت صوت حبات مسبحة الراهب وهو يقول :
- الدولة تحتفى احتفاء كبيراً بالرسامين فى هذا العصر.. بكل ما هو ثقافى.. الأعياد الاحتفالية كثيرة بالفن.
صرخ السائق الملتحى بجوارها وهو يقول بما يشبه التحذير :
- لعن الله أمة كثرت أعيادها.

وكأنه أثار مرارات تتقلب داخلها.. تجدد الشعور بالغثيان فعادت أشد غضبا تسرح بعيدا تتصور الاحتفالات اليومية والمهرجانات الأسبوعية والليالى الثقافية الليلية.. والوجوه واحدة هى.. هى لا تزيد على مائة وخمسين فردا تراهم هنا، وتراهم هناك. كأن الاحتفالات هم المقصودون بها.. رغم أن الواقع أنهم فى غنى عنها لأنهم أنفسهم من المبدعين فالاحتفاليات لا تضيف إليهم شيئا جديدا.. لأنهم إن أرادوا الجديد بحثوا عنه بين الكتب والمجلات المتخصصة، ولديهم فوق هذا القدرة على التجوال فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها.. إن من يحتاجون حضور مثل هذه الأعياد هم الشعب المسحوق والدائر فى رحى العذاب اليومى وليس هؤلاء الفنانون القادرون.. لماذا لم ينزل أصحاب هذه المحافل إلى الكفور والنجوع.. إلى الحوارى والأزقة يعلمون الناس كيف يحلمون فالفن هو تجسيد الأحلام فى أدمغة من يمارسونه.. تعى بوضوح أنه قديما كان المصريون يحلمون بالدولة القوية.. بحقوق الإنسان.. بجلاء الاستعمار والآن «لابد لنا من حلم نسعى إليه.. أو ليتهم حتى يخرجوا لهم الكتب المدرسية

تجللهـا اللوحات الجـمالية لترقق من حـواس الطفل وتسـمو بهـا
ما أظن أن طفلا كـهذا يمكن أن يغتصب أو يسـرق» شعورها بأنه
العار كله أن يقـدم لشريحة واحـدة وصغيـرة جدا ،كل شيء على
طبق من فضة وفـوق هذا لهم ما يرعاهم من المقـتدرين والأغنياء
ولهم ما يحـرسـهم من جانـب الدولة فى خارج المحـافل الثقافـية
يقف الأمن الحكومى ومن الداخل تتجـول الحكومة بنفسـهـا ممثلة
فى أفراد وجـودهم يشكل إثارة وافتتان غـريبين.. وبقية مـبدعى
مـصر يغـطون فى صمت كـظيم.. إنهم فنانون من تحت السـلاح
لا يلتفت إليهم !! وتوقفت العربة مرة أخرى.. إشارة مرور وسرب
من الجمـال يعبر. يساق إلى المـذبح المعروف فى عيـونهم حزن
الدنيا متهورون إلى أقدارهم ولكنهم يموتون من أجل هدف.. وهى
عـرفت الموت مـن أجل لا شىء ، اللهم إلا لحظة لذة زائفـة تركت
نفسها لهـا فى غفلة من نفسها.. تخبط قلبها فى صـدرها ليجسد
إحـساسـها بالقـهـر والظلم.. فمن الظلـم أن تدفع فى ثمن لحظة
مسروقة كـل هذا الألم.. واستأنفت العربة مسيـرتها حتى وصلت
إلى قرب الدير فتمهلت ثم توقفت ونزل «الراهب» بعد أن افسح له
الاثنان الآخران المكان.. فى قيامه أثار رائحة نفذت إلى خياشيمها
فاستراحت لهـا ثم استدار يقترب من النافذة ناحـيتها.. وضع يده
بمسبحتـها على كفها المركونة على فتـحة الشباك وقبل أن ينطق
كانت الدمـوع أمواج تتـرى داخلها ولا يمكن مقـاومتـها ومع ذلك
نظرت إليـه وهى تغـالب لـتـقول : «هـل أطمع أن تدعـو لى» ظل
ابتسامـة عبرت بوجهـه وهو يسحب يده ويقول بتـأكيد «دون أن
تطلبى دون أن تطلبى ولكنى أوصيك» فقالت من فورها :

– توصينى بماذا بماذا ؟

– أوصيك بأن تحلمى لا تتوقفى عن الحلم. فالتوقف معناه الموت.

– أحلم بماذا يا أبى غير النسيان ؟

– النسيان حلم لك أنت شخصيا لتتطهرى.. أما ما أقصده و...

وقبل أن تنتبه إلى كلماته وكأنها قد أفاقت فجأة وبلا مهل سمعته يقول مرة أخرى :

– بعد قليل سأسافر إلى سيناء وهناك يا ابنتى يوجد دير عظيم. سأدعو فيه أن يستجيب لك الرب.. سيناء هى الأمل والحلم للجميع يا ابنتى.

وتقدمت العربة سائرة.. لم تجسر أن تدير رأسها لتلتفت إليه دموعها سيالة تغرق وجهها فى صمت.. دقائق ووصلت إلى بيتها بكفيها الاثنين مسحت وجهها وترجلت نازلة.. همت أن تخطو أولى خطواتها إلى مدخل بيتها كأنها تريد أن تحتمى به تستتر داخله، ولكن السائق استوقفها وبصدق كان يعرض عليها أن يعود مرة أخرى ومعه «حبل» ليسحب العربة.. على الفور تذكرت وجه الأسطى «زينهم» له نفس نظرته وبساطته حدقت للحظة واحدة فى وجهه وهى تشكره وتحث الخطى إلى مدخل بيتها.. بيديها تتحسس ثوبها وتحاول ما أمكنها أن تدارى التمزقات الكثيرة صعدت أول الدرج ثم توقفت تخلع حذاءها من قدميها.. كان السلم مبتلا فاستراحت لبلل الأرض وطلعت تتعمد أن تدوس فى الماء لا أن تتخطاه.. اكتشفت أن لا مفتاح معها لأنه فى الحقيبة التى سرقوها.. كيف لها بالدخول لتستتر وتخفى ما جرى لها عن سكان العمارة بأكملها.. خبطت الباب بغضب فلم يفتح.. ابتعدت

قليلاً واندفعت بكتفها تزيحه فلم يفتح فخرت جالسة أمام عتبة البيت أغرقتها المياه وعرفت أن البواب ينظفه.. استمرأت جلستها وسط الماء ولو كان من أثر مسح السلم الأسبوعى.. بلا حول لها ولا قوة .. جلست انزرعت مكانها يفصلها عن التستر خطوة واحدة.. باب خشبى هو الفاصل بين الجحيم والأمان.. تحسست الخشب بيديها.. فى ملمس الباب دعوة للغضب والثورة تتفجر من داخلها بمعنى واحد يجسد وحدتها.. الوحدة التى لها دوما.. ضاع المفتاح فلا أحد يشعر بها ، صوت الأقدام لمن هم فى الشقة التى تعلوها تصلها على جلستها تروح وتجىء وصوت الطفل الوليد تسمعه واضحا.. «لو كان لى أولاد يملأون البيت حياة بدلا من هذا الموات الذى انتظر به ما لا يجىء» عصفت الوحدة بها، فارتجت على جلستها : «هل أخطأت بأننى لم اتزوج وأكون أسرة لى تخصنى أنا وحدى» يتكثف داخلها الإحساس بالضياع فلا أحد ينتظرها.. ولا أحد يتوقع دخولها أو خروجها.. وها هى تعود ممزقة تستجير ولا من مجيب كأن كل ما حولها وكل شهرتها ككاتبة لا تساوى قلبا واحدا تصنعه من كيانها.. تعطيه من روحها.. لتجده معها على الأيام أتذهب إلى إحدى شقيقاتها لتنفضح أمام أزواجهم بثيابها الممزقة و.. و.. ؟!

ولم يكن أمامها إلا أن تغرق نفسها فى حلم لن يجىء بأن تبدأ من جديد.. لكن هل يجوز ؟ إن للعطاء والإخصاب فترات فى عمر الإنسان.. كما هى فى عمر الشعوب تعطى وتأخذ أما إذا فات الأوان فلا معنى لشىء ولا إدرار إنما هو الجفاف والنضوب.. «أنا الآن لا أصلح لشىء لأنى دخلت مرحلة اليأس فلا هدف أعيش من أجله رباه لماذا تطيل فى أعمار النساء إلى ما بعد سن اليأس..

ولماذا لا ينفتح الباب؟» وعلى غير توقع انفتح الباب ووجدت «أم صباح» بقامتها الضخمة أمامها! تسمرت مكانها للحظة وتسمرت «أم صباح» مكانها وهى تقول : «لقد صحيت مبكرة فجئت لأنظف الشرفات.. لقد ظننت أنك نائمة ! حجرتك مغلقة !!».

لم تسمع كلمة واحدة منها ودخلت كالمسحورة.. مشت خطوات إلى الداخل «وأم صباح» تغلق الباب خلفها.. تمشى كأنها تنفذ بين سحاب كأن لا ثقل لجسدها.. لا تحس وقع جسدها.. الممشى طويل الذى يوصل إلى حجرتها.. وتقلصت أصابعها بمقبض باب حجرتها.. شحنات من الأمان ارتدت بقوة مقتحمة قلبها ومازالت لا تسمع «أم صباح» وهى تقول : «بسم الله الرحمن الرحيم ملابسك ممزقة» انفلتت يدها من على المقبض بعد أن فتحت الحجرة.. رائحة أنفاسها من أثر وجودها بالأمس.. وحتى آثار لعطرها تخللت أنفها.. أخذت شهيقا واسعا وطردت معه ببطء بعض ما يثقل أعماقها.. لا تصدق أنها تحت سقف حجرتها.. سريرها يتوسط الحجرة، وشعرت بحنين جارف «لتمد طولها عليه» صرخت «أم صباح» فيها «ملابسك متسخة يا ست مها».

صحا رد فعلها وتملك منها شعورها بالغثيان من جديد فاندفعت إلى الحمام تنفض عنها تحت الماء هذا الشعور «وأم صباح» تناولها المنشفة فكرت لبرهة أن تقفز داخل الغسالة الكهربائية وتديرها ربما تتخلص من شعورها بالغثيان وبرائحة العطن الفجة التى تلازمها.. فتحت الغسالة فعلا فصرخت «أم صباح» مرة أخرى «بسم الله الرحمن الرحيم إيه اللى جرى النهاردة» لم تنتظر مها لتجفف جسدها، إنما خرجت بخطوة واحدة إلى الممشى وأدارت القرص سمعتها «أم صباح» وهى

تحجز موعدا مع طبيبها فهمت أنها مريضة.. أسرعت للمطبخ وعادت بكوب ليمون تقدمه لها مرت بيدها على ظهرها أكثر من مرة تربت عليها كأنها طفلة تدللها، وسحبتها من يدها وفى حجرتها كانت تناولها ملابسها..

أمسكت المشط ترتب شعرها و«مها» صامتة كطفلة لم تجد الكلام بعد.. بدون مقدمات احتضنتها «أم صباح» وهى تردد «لماذا لم تقولى إنك عيانة استريحى.. استريحى» اختفت لدقائق وعادت فى يدها كوب شاى وورقة تخرج منها «الإسبرين» بدت مها مسلوبة الإرادة كل ما تقدمه لها تتقبله.. شربة واحدة من الشاى وألقت بجسدها عليها فاحتضنتها «أم صباح» فاستكانت برأسها على كتفها لثوان.. فى فراشها كانت تتحسس ساقيها وظهرها بحنان لمدة طويلة وهى تتمتم بعبارات «والنبى إنت محسودة وعايزة رقوة» ثم بدأت تقرأ «قل أعوذ برب الفلق» رغم يقين «مها» بأنه لا يوجد مَنْ يحسدها على وجه الدقة وتستطيع أن تحدده إلا أنها كانت تستمع إلى كلماتها بقدر كبير من الارتياح والرضا.. وبدأ النعاس جسورا يسحبها إلى تخومه وعوالمه.. مسحت«أم صباح» بيدها عليها وأحكمت الغطاء حولها ومازالت تقرأ ما تيسر مما تحفظه إلى أن تركتها واتجهت إلى الشرفة تنوى أن تشد ضلفتيها.. شعرت «مها» بها فقامت قاعدة وهى تقول : «لا لا صوت غلق الشباك سيخيف اليمامة.. فربما عادت.. دعيها تبيض.. دعيها تحاول» وانكفأت مستسلمة تترك نفسها طواعية إلى تخوم النوم الأكيد. كم من الوقت نامت لا تدرى.. كانت تعى فقط اضطرابها فمرة كأنها تقع من فراشها فتصحو تسحب الوسادة إلى صدرها بقوة كأنها تمسك بها حتى

لا تنزلق.. ومـرة تتناوب عليهـا الوجوه الثـلاثة قريبة مـن إنسان عينها فتهم أن تصرخ ولا يخرج صوتها.. فتنقلب كالمحمومة على جنبهـا الآخر.. إلى أن صـحت قاعدة فى سـريرها بقيت سـاعات قليلة على موعد الطبيب.. «أم صباح» تقترب منها مرة أخرى تربت عليها.. تحتضنها.. هل وصلهـا ما حدث لها ؟ لا يمكن فمن أين لها بمجرد تصور ما حـدث.. إلا أنها بدت مصرة بنوع من الإلحاح أن تعاملها وكـأنها ابنة لها.. تهدهدها.. تربت عليها تتـحسس ظهرها وذراعيهـا حتى سحبت الفرشـاة من أحد الأدراج تنوى أن تسوى لها شعرها الذى مازال مبتلا من أثر حمامها.. بدت «مها» بكل هذا الاهتمام مقرورة كطفلة وحيدة فهناك رغم حقيقة الأشياء والأقدار من يمنحها هذا القدر من التعاطف دون أن تعـرف حقيقة ما جرى لها.. فـعل الابتسامـة متردد علـى شفتى «مـها» فرغم قـسوة كل شىء.. دائما.. دائما لا يغيب الاحتمـال بامكانية الاحساس ببعض الرضا الذى يخـرج فى شكل ابتسامـة.. وما أن ابتسمت فـعلا إلا ووجدت «أم صباح» تمد لها يدها وبنظرة جسورة كانت تقول لها : «إيدك على الفكة يا ست مـها» ولما تلاقت عيـونهما كـانت تؤكد لها العبارة مرة أخرى :

– إيدك على الفكة يا ست مها .

– فكة إيه يا أم صباح .

فانقلب وجه أم صباح جادا وهى تقول لها :

– أعطيتك كل الحنان.. هو مالوش ثمن؟

رقم الإيداع ٩٨/١٠٠٨١
الترقيم الدولى I. S. B. N.
977 - 08 - 0765 - 6